الأستاذ الدكتور
رشدى عزيز محمد

نظرات
فى
التصوف الإسلامى
ومكان رابعة فيه

الطبعة الأولى ١٩٩٩

نظرات

فى

التصوف الاسلامى

ومكان رابعة فيه

تأليف

الأستاذ الدكتور

رشدى عزيز محمد

عميد كلية أصول الدين الأسبق

وأستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة

بكلية أصول الدين

جامعة الأزهر

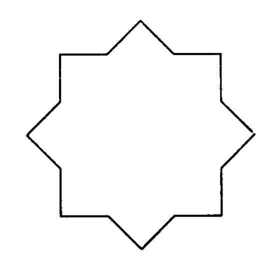
الطبعة الأولى

١٩٩٩

الناشر : العاشر للطباعة والنشر والتغليف (كارتبرس)

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . سبحانه(يؤتـــى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) .

وأصلى وأسلم على محمد المبعوث رحمة للعالمين . أرسله ربه مبشرا ونذيــرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبــه الذين قال عنهم :(أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) رضى الله عن صحابـــة رسول الله الذين كانوا مثلا عليا سار عليها من جاءوا بعدهم متأسين بهم فى القول والعمل.

وبعد: فهذه نظرات فى التصوف الإسلامى جاءت فى خمسة فصول ، أردت أن أسجلها فى كتاب ، لينتفع بها من لم يتيسر له الاطلاع على ما ســطره الصوفيــة المسلمون أنفسهم فى كتبهم،مبينا ما أخذوا به أنفسهم من رياضات ومجاهدات ، وما عايشوه من أذواق ومواجيد ومكاشفات ، وما كشفوا عنه من خلال حياتهم الصوفية الروحية من سمات أخلاقية ونفسية. مما جعل التصوف الإسلامى علما للأخـــلاق. وجعل الصوفية المسلمين علماء للأخلاق . مما حدا بـــالتصوف أن يكــون مــرآة صادقة للحياة الروحية الإسلامية ،تنعكس عليها الصور المختلفة التى اتخذتها هـــذه الحياة فى مختلف العصور الإسلامية . هذا من جهة .

ومن جهة أخرى: فإننا سوف ندرك أن التصوف الإسلامى الحق ليس هو مـــا يراه الناس من بعض المنتسبين إليه زورا من أفعـــال غريبـــة وعجيبـــة يقطبــون حواجبهم لها ، لما فيها من أوهام وخرافات ، وليس هو التصرف الذى شـــاع فـــى عصر المماليك فى مصر والشام ، والذى كان أهم مظـــاهره الشـــعبذة و الصيـــاح والتمايل بما يسمونه الذكر فى المجالس ، والخروج فى المواكـــب والأعـــلام فـــى الطرق واللعب بالثعابين الخ.

ولقد حرصت على ذكر نماذج من هؤلاء الصوفية المسلمين ، وخاصة زهاد وعباد وصوفية القرون الأولى للإسلام ، مؤكدا بهذا أصالة التصوف الإسلامى .

كما حرصت على ذكر بعض من قام منهم بجهود مخلصة فى الدعوة إلى الإسلام فى أفريقيا وغيرها. كما ألقيت الضوء بصفة خاصة على شخصية صوفية وهى (رابعة العدوية) والتى كان لها قدم راسخة فى الحياة الروحية الإسلامية فى عصرها وما تلاه من عصور. باعتبارها شخصية نسائية أثارت انتباه الكثيرين من الكتاب والباحثين وهى أول من تغنت بنغمات الحب الإلهى فى رياض الصوفية كما يقول المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق ، وكما عبر عن هذا المعنى العلامة (ماسنيون) فى دائرة المعارف الإسلامية فى قوله عن رابعة العدوية :(إنها تركت فى الإسلام أريجا من الحب وعطرا من الولاية لن يتبخرا ولن يزولا.

وأرجو أن أكون قد وفقت .

ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها

المؤلف

الفصل الأول

- علاقة التصوف بالفلسفة
- الاختلاف فى أصل كلمة تصوف
- التصوف الحق لا يخالف الإسلام
- التصوف عربى إسلامى

علاقة التصوف بالفلسفة

قبل كل شيء . ينبغي أن أحيط علما بأن هناك علاقة وطيدة بين الفلسفة والتصوف و لكي تبدو هذه العلاقة واضحة يجدر بنا أن نبين معنى كلمة فلسفة.

فالفارابي: يرى أن هذا الاسم يوناني ، و هو دخيل في اللغة العربية ، وهو في منطوقهم (فيلاسوفيا) بمعنى إيثار الحكمة . وهو مركب عندهم من : (فيلا) و (سوفيا) . على معنى أن (فيلا) هي الإيثار . و(سوفيا) هي الحكمة . والفيلسوف مشتق من الفلسفة . وهو منطوقهم: (فيلوسوفوس) ومعناه (المؤثر للحكمة) .

وعلى هذا : فالفلسفة هي : حب الحكمة . والفيلسوف هو: محب الحكمة .

غير أننا إذا سألنا ابن سينا عن معنى (الحكمة) لوجدناه في (رسالة الطبيعيات) يسهب في بيان معنى هذه الكلمة فيقول : الحكمة هي استكمال النفس الإنسانية بتصور الأمور ، والتصديق بالحقائق النظرية و العملية على قدر الطاقة الإنسانية .

فالحكمة المتعلقة بالأمور التي لنا أن نعلمها . و ليس لنا أن نعمل بها هي (حكمة نظرية) .

و الحكمة المتعلقة بالأمور العملية التي لنا أن نعلمها ونعمل بها هي: (حكمة عملية) .

ثم نرى ابن سينا و قد قسم كل حكمة منها إلي ثلاثة أقسام . فقد قسم الحكمة العملية إلى: مدنية و منزلية وخلقية . ثم قسم النظرية إلى طبيعية و رياضية وفلسفة أولى، و الفلسفة الإلهية جزء منها ، وهي معرفة الربوبية .

ثم نراه يقول بعد هذا : و مبادئ هذه الأقسام التي للفلسفة النظرية مستفادة من أرباب الملة الإلهية على سبيل التنبيه ، و متصرف على تحصيلها بالكمال بالقوة

العقلية على سبيل الحجة . ومن أولى استكمال نفسه بهاتين الحكمتين ، و العمل مع ذلك بإحداهما فقد أوتى خيرا كثيرا.

ويرى الدكتور المرحوم عبد الحليم محمود أن هذا المعنى الذي ذكره ابن سـينا للحكمة والذي يشتمل على الرياضيات و الطبيعيات والإلهيات ، كما يشتمل علـى السياسة والأخلاق . هو المعنى العادي الذي يحلو لمؤرخي الفلسـفة اليونانيـة أو الإسلامية أن يذكروه عند تقسيمهم للفلسفة . و هذا المعنى غير دقيق .

ثم ساق فضيلته كثيرا من المعاني المتداولة لكلمة حكمة . في كتابـه(التفكـير الفلسفـي فى الإسلام) (جـ ٢) ثم اختار المعنى الفلسفي لهذه الكلمة وهو ما قال به ابن عطاء من أن الحكمة هي: (المعرفة بالله)

ثم قال في الكتاب نفسه و بعد ذلك مباشرة :

و الواقع أن المعرفة بالله تعالى لا تتأتى ولا تكمل إلا بالفضيلة .

وعلى ذلك : فالحكمة ينتهي معناها في رأينا إلى كل يتكون من جزأين هما : **المعرفة بالله** - و ثانيهما : **المعرفة بالخير** . أو بعبارة أدق: هي وحدة عبـارة عن المعرفة بالله التي تتضمن المعرفة بالخير .

الحكمة إذن هي : المعرفة بالله . و طريقها الفلسفة . فالفلسفة إذن هـي إيثـار الحكمة أو حب الحكمة . أي الجهد المتواصل للوصول إلى معرفة الله . والفيلسوف كما نقلنا عن الفارابي: هو المؤثر للحكمة . أو هو الذي يجعل الوكد مـن حياتـه وغرضه من عمره الحكمة . أي المعرفة بالله التي تتضمن المعرفة بالخير .

ولكن! هل الفلسفة ليست شيئا آخر غير البحث العقلي ؟ أم أن هنـاك بجـوار العقل طريقا أخر ؟

حقيقة : إن الفلسفة بحث عقلي للوصول إلى الحكمة . هذا مسلم . و لكن ينبغي أن نعلم أنه بجوار العقل طريق أخر هو طريق الارتياض .

و لقد رأي ابن سينا رغم إشادته بالعقل في مبدأ حياته بل وفي معظمها طريقا آخر للوصول إلى الحكمة ، هو طريق الارتياض والإشراق ، ورسم ذلك الطريق في أنماطه الثلاثة الأخرى من كتاب الإشارات .

و لم يكن هذا هو رأي ابن سينا فحسب . بل كان رأي الفارابي من قبله ، وابن طفيل من بعده .

ولا أكون مغاليا إذا قلت: إن طريق العقل و الإشراق كانا موجودين حتى منذ بدء الفلسفة قبل اليونان . عندما كانت هناك فرقة تسمى (أرفيوس) و كان يرى رئيسها الطريقين في الوصول إلى الحكمة . و كذلك الفيثاغورية و الأفلاطونية والأفلاطونية الحديثة .

غير أن أرسطو استطاع أن يغلب العقل على الإشراق بقوة جدله .

و لنا أن نتساءل بعد هذا فنقول : هل الطريقان متساويان في الوصول إلى الحكمة ؟ و الجواب : لا .

و يتضح هذا إذا عرفنا أن نتائج الطريق العقلى متعارضة ، ولم يتصل سالكوه بالله . أما نتيجة الطريق الارتياضي فهي واحدة ، و قد اتصل سالكو هذا الطريق بالله .

و في الحقيقة إن الطريق الأمثل في الوصول إلى الحكمة ، هو ما عبر عنه أفلاطون بقوله :

الكشف عن الإله ، ثم الاتصال به .

الكشف عن الإله عن طريق العقل . و هذا يشكل منتصف الطريق . و البعض من الباحثين يقف عند هذه المرحلة و لا يتعداها .

ثم الاتصال به . وذلك هو طريق التصفية ، وهو النصف الثاني من الطريق الأمثل .

ثم يقول فضيلته بعد هذا : وإذن:

فتعريف الفلسفة بناء على التوضيح السابق هو: المحاولات التي يبذلها الإنسان عن طريق العقل ، وطريق التصفية ، ليصل بها إلى معرفة الله . وهنا تكمن العلاقة بين التصوف و الفلسفة .

أصل كلمة تصوف

وينبغى أن نشير هنا إلى أن هذا الاسم الذي أطلق على الصوفية قد اختلف في أصله و في مصدر اشتقاقه . و لم ينته الرأي فيه إلى نتيجة حاسمة بعد.

يقول المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود . فى مقدمته لكتاب المنقذ من الضلال : و من أقدم الآراء التي قيلت و أطرفها : ما ذكره البيروني: من أن هذا اللفظ إنما هو تحريف للكلمة : سوف اليونانية التى تعنى الحكمة . يقول البيرونى : إن من اليونانيين من كان يرى الوجود الحقيقي للعلة الأولى فقط لاستغنائها بذاتها فيه وحاجة غيرها إليها ، وأن ما هو مفتقر في الوجود إلى غيره فوجوده كالخيال غير حق ، والحق هو الواحد الأول فقط . و هذا رأي السوفية . وهم الحكماء . فإن سوف باليونانية: الحكمة . و بها سمي الفيلسوف . بيلا سوفيا . أي محب الحكمة . و لما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم ، سموا باسمهم . ويرى البيروني: أن التصحيف دخل هذا الاسم بعد ذلك فقال: مفسرا ومعللا : ولم يعرف اللقب بعضهم . فنسبهم للتوكل إلى الصفة ، وأنهم أصحابها في عصر النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم صحف بعد ذلك فصير من صوف التيوس .

و يعلق الدكتور عبد الحليم محمود على هذا الرأي فيقول .

ورأى البيروني هذا على طرافته لا يستقيم لسبب بسيط . و هو أن التسمية بالصوفي كانت موجودة قبل ترجمة الحكمة اليونانية إلى اللغة العربية . فالبيروني يقول بصراحة : ولما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم .

ورأى البيروني إذن: لا يستقيم إلا على أن هذا اللفظ نشأ فى الإسلام بعد أن عرفت الكلمة اليونانية ، و عرف معناها ، و تداولتها الألسنة ولاكتها الأفواه ،وألفت معناها العقول . أي حوالي منتصف القرن الثالث الهجري على أقل تقدير . مع أن الكلمة عرفت قبل ذلك بكثير . بل لقد عرفت في العهد الجاهلي على ما يرى

صاحب اللمع ، ولكن إذا كان رأي البيروني لا يستقيم ، فإلام نتجه في اشتقاق هذه الكلمة ؟ إن الآراء أصبحت معروفة ، بل لقد كانت معروفة من قديم الزمان . وصاحب الرسالة القشيرية يستعرضها رأيا رأيا و ينقضها جميعا على النحو الأتى.

١- فأما قول من قال : إنه من الصوف ، وتصوف إذا لبس الصوف ، كما يقال : تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه . ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف.

٢- و من قال: إنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي .

٣- و من قال: إنه من الصفاء .

فاشتقاق الصوفي من الصفاء بعيدا عن مقتضى اللغة .

٤- و قول من قال: إنه مشتق من الصف . فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث المحاضرة من الله تعالى . فالمعنى صحيح . و لكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف .

و إذا كان صاحب الرسالة القشيرية ينتقد كل هذه الآراء فإنه إذن لا يرى الاشتقاق. و يقول: هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة فيقال : رجل صوفي وللجماعة صوفية. و من يتوصل إلى ذلك يقال له : متصوف . و للجماعة متصوفة و ليس يشهد للاسم من حيث العربية قياس و لا اشتقاق ، وإلا ظهر فيه أنه كاللقب.

وإذا كنا قد استعرضنا الآراء التي قيلت في هذا الموضوع قديما . فهل يا ترى هناك من جديد ؟

نتابع هذا مع فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود في مقدمته لكتاب المنقذ فنراه يقول :

ما رأي الباحثين الحديثين في أصل كلمة تصوف ؟

يقول الشيخ عبد الواحد يحي : أما أصل هذه الكلمة : صوفي:_ فقد اختلف فيه اختلافا كبيرا .ووضعت فروض متعددة . و ليس بعضها أولى من بعض . وكلها غير مقبولة . إنها في الحقيقة تسمية رمزية . وإذا أردنا تفسيرها ينبغى لنا أن

نرجع إلى القيمة العددية لحروفها . وإنه لمن الرائع أن نلاحــــظ القيمــة العدديــة لحروف (صوفي) تماثل القيمة العددية لحروف : (الحكمـــة الإلهيــة) فيكــون الصوفي الحقيقي إذن .

هو الرجل الذي وصل إلى الحكمة الإلهية ، إنه : العارف بـــالله . إذ إن الله لا يعرف إلا به .

و تلك هي الدرجة العظمي الكلية . فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة .

و قد انفرد الشيخ عبد الواحد يحيي فيما نعلم بهذا الرأي . وهو رأى لا يمكن أن ينقض بالأدلة المنطقية ، ولكنه أيضا لا يمكن أن يؤيد بالأدلة المنطقية ، يستسـيغه قوم دون برهان ، و ينفر منه آخرون من غير ما حجة . وإذا تركنا الشـــيخ عبــد الواحد لننظر إلى الباحثين في هذه اللفظة . فإننا نجدهم ينقسمون إلـــى فريقيــن لا ثالث لهما .

١. يجاري فريق منهم أبا الريحان البيروني في أنها مأخوذة عن أصل يونـــاني هو كلمة - سوفيا - اليونانية .

و قد قال بهذا الرأي " فون هامر " من المستشرقين . واعتنقه كثير من الأساتذة الباحثين . و أيده في حرارة محمد لطفي جمعه .

أما السبب الذي جعلهم ينصرفون عن نسبة الكلمة إلى الصوف . فـــهو أنــهم يعتقدون أن نسبتها إلى الصوف يبعد الصوفية عن الحكمة الإلهية ، و ينسبها إلـــى الظاهر و الشكل ، و على حد تعبير محمد لطفي جمعه : يجرد هذه الفرقة المنتميــة إلى الإسلام من صفة الحكمة و الفضيلة . و قد بينا رأينا في هذا الموضوع فيمـــا مضي و نقول الآن:

إن أصحاب هذا الرأي يعطون قوة و تأييدا لمن يزعم أن التصوف الإســـلامي وليد الفلسفة الأفلاطونية (وهو رأي باطل)

و لقد هاجم دكتور زكي مبارك هذا الرأي في قوة و في منطق سليم . لقد كـان العرب حسبما يرى مولعين بحفظ ما يدخل لغتهم من الألفاظ الأجنبية . و لو كـان التصوف من سوفيا لنصوا عليه في كثير من المؤلفات.

ثم إن كلمة – سوفيا – اليونانية – معناها الحكمة . و كانت الفلسفة عند اليونـان القدماء تهتم بالعلوم الطبيعية . و كان كثيرا من فلاسفتهم أطباء . و قـد ترجمـها العرب : فسموا الطب الحكمة . و كلمة حكيم: لا تزال تؤدي معنى كلمة طبيـب . والفلسفة نفسها سماها العرب الحكمة .

وقالوا: تاريخ الحكماء . فهم عرفوا من سوفيا الفلسفة والطب . أمـا الحكمـة الروحانية فمن البعيد أن يكونوا لمحوها ، لأنهم كانوا يرون اليونـان مـن عبـدة الأوثان .

ثم يقول الدكتور زكي مبارك في ظرف ظريف و في صورة من الجـد هـي تعبير أبلغ التعبير عن التهكم و السخرية : على أنه ما الذي يمنع أن تكون سـوفيا بمعنى الحكمة الروحانية ؟ جاءت من كلمة : صوف و هي قديمة في العربية ؟

إن التصوف قديم جدا عند العرب و هو أساس المسيحية . و لبس الصوف كان علامة التقشف . فليس من المستبعد أن ترحل كلمة (صوف) إلى معابد اليونـان. و لم يبق بعد ذلك إلا أن يكون هذا الرأي على حد تعبير الدكتور زكي مبارك ليـس إلا ضربا من الإغراب .

٢- أما الفريق الثاني من الباحثين الحديثين – و هم أكثرية – فإنه يـرى أن كلمـة تصوف مأخوذة من (الصوف) .

إنني أرى كماترى الغالبية العظمى من الباحثين الحديثين – أن لفظة (التصـوف) تنتسب إلى الصوف . و كما أنه يقال: تقمص إذا لبس القميص – كذلك يقـال: تصوف إذ لبس الصوف . ومن أبرز القائلين بهذا الرأي " الدكتور زكي مبارك " و المستشرق "مرجليوت" .

و إذا كانت هذه الكلمة تنتسب إلى الملبس - و هو مظهر و شكل ورسم- فليس معنى ذلك أن التصوف مظاهر و أشكال .

و ليس من المحتم دائما أن يكون المعنى الأصلي للاسم هو المراد مما وضع الاسم له . إذ المعنى الأصلي قد يتطور و يتغير و يختلف . وقد يقصد عكسه و من أجل ذلك فإنه لا مجال لتخوف هؤلاء الذين لا يريدون أن ينسبوا التصوف إلى الصوف ، بحجة أن انتسابه إلى المظاهر يحط من شأنه .

حقيقة إن الباحثين كثيرا ما يجدون صلة و ثيقة بين المعنى الأصلي للاسم وما وضع الاسم له . أو بين الاسم والمسمى . و لكن ذلك ليس مطردا . و الواقع أن التصوف أصبح معنى معروفا لا شأن له بالمظاهر و الأشكال . وإذا كان بعض الأشخاص لا يزالون يمارون في قيمته أو فائدته فإنهم لا يتخذون التسمية تكأة لهذه المماراة ، و لو فرضنا أنهم اتخذوها تكأة لخرجوا عن سمة الباحثين ، و لأصبحوا سخرية من الساخرين .

تم يقول الدكتور المرحوم عبد الحليم محمود - معلقا على ما مضى : على أنني أرى كما يرى كثير غيري ، وكما يثبت التاريخ ، أن هذه الكلمة (تصوف) لم توضع في الأصل للتصوف بمعناه العادي الذي نفهمه الآن . وإنما وضعت في المبدأ لتدل على نمط من العزوف عن الدنيا : إنها كانت علامة الزاهدين والمتنسكين . فسمي بها هؤلاء الذين يعزفون عن الدنيا ، إن العزوف عن الدنيا عادة قديمة جدا يتمسك بها بعض الناس تمشيا مع فكرة دينية ، و إرضاء لشعور تنسكي .

و قد حدثنا القرآن عن هؤلاء الذين ترهبوا ابتغاء رضوان الله . ويتمذهب بها بعض الناس ، إرضاء لفكرة منطقية ، واتباعا لمذهب عقلي يرى السعادة في الهدوء ، والهدوء لا يتأتى إلا بتحديد الرغبات ، و البعد عن الشهوات . و ذلك هو الزهد .

و سواء أكان العزوف عن الدنيا دينا أم منطقا فإنه موجود منذ أقدم العصور .

فالدين صاحب الدنيا منذ نشأة الإنسان فيها . و المنطق صاحب الإنسان منذ وجوده.

و لقد رأى هؤلاء الزهاد - من ناحية الملبس - في الصوف ما يحقق أهدافهم التي تتصل بالتقشف و الشظف و الخشونة . فهو متين رخيص خشن ، لا يحتاج الإنسان معه في الشتاء إلى غيره ، و لا يحتاج الى تغييره كثيرا . ذلك أنه لا يبلى بسرعة. فتصوفوا : أي لبسوا الصوف . وكان لا بد من اسم يطلق على هؤلاء . وكان من السهولة بمكان أن يطلق عليهم صوفية . و أطلق الاسم مصادفة أو تعمدا : فذاع و شاع و أصبح الزهاد يعرفون في البيئات العربية - باسم الصوفية .

هؤلاء الزهاد ، كانوا موجودين في العصر الجاهلي ، تدينا أو منطقا ، و كانوا موجودين في صدر الإسلام ، تدينا أو منطقا . حتى إذا كانت رابعه و كان الجنيد و كان ذو النون ... حتى إذا و جد التصوف بمعناه الحقيقي . و كان ممثلوه عازفين عن الدنيا ، لابسين للصوف . أطلقت الكلمة عليهم . و لم يميز الناس بين حالتين مختلفتين كل الاختلاف هما : حالة الزهد البحت . و حالة التصوف . و لم يثر الصوفية على التسمية في حد ذاتها ، و من لم يرض منهم نسبتها الى الصوف ذهب في نسبتها إلى مذاهب أخرى.

و إذا كانت الكلمة تنتسب إلى الصوف فهي كلمة موفقة كل التوفيق . و لعل عناية المقادير هي التي هيأت لها الجو للظهور و الشيوع . إذ إنها تمت بصلة حرفية نغمية جرسية إلى كثير من الكلمات التى تدل على معان وثيقة الصلة بالتصوف . كالصفاء : وصلته بالتصوف ظاهرة . والصف : الصف الاول في الجهاد / جهاد العدو / وجهاد النفس .

و الصُّفّة - صفة مسجد رسول الله . التي كان يعيش فيها قوم وهبوا أنفسهم لله و للجهاد . والصفة - الصفة الجميلة .

و سوفيا اليونانية التي تدل على معرفة الغيب على وجه الخصوص . و كـــان من التوفيق أيضا هذا الغموض نفسه في أصل الكلمة . فما من شك في أن اختـلاف المذاهب و الآراء في أصلها بين الكثير من معاني التصوف و من مظاهره .

التصوف الحق لا يخالف الإسلام

نستطيع أن نقول: إن التصوف الحق لا يخالف الإسلام - يؤيدنا في هذا قـــول سيد هذه الطائفة و إمامهم على حد تعبير القشيرى : الطرق كلها مســـدودة علـــى الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول علية الصلاة والسلام .

و قال: من لم يحفظ القرآن ، و لم يكتب الحديث ، لا يقتدي به في هذا الأمـو : لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب و السنة .

و قال : مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة . وليس هذا مذهب الجنيد فقــط وإنما هو مذهب كل أهل الطريقة الحقيقيين . إنهم جميعا يتخذون الرسول إمامـــا . فينهجون نهجه ، و يسلكون سبيله ، و يقتفون أثره ، و تتنســم أرواحـــهم هديـــه . وكلهم من رسول الله ملتمس غرفا من البحر أو رشفا من الديم.

وإذا كان المرحوم الدكتور/ عبد الحليم محمود قد أبرز رأيه في صلة التصــوف بالإسلام **فإن المرحوم الشيخ " محمد ابو زهرة "** يقول في هذا المجال أيضا :

التصوف أصله من الزهادة ، والانصراف للعبادة ، من غير أن ينقطـــع عـــن أسباب الحياة ، وطلب الرزق ، وقد دخل الإسلام من عدة مسالك :-

أولها: وجود الزهادة و الزهد في الحياة و متعها ، مكتفيا بالحلال منـــها ، و ذلــك أعلى الزهد . فقد قال الإمام أحمد رضي الله عنه مجيبا من سأله عن الزهد : هو طلب الحلال و الاقتصار عليه . و من الزاهدين من اتجهوا إلى الحرمان و فهموا أن قطع النفوس عن الملاذ حلال .

ولكنه الزهد الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه و سلم ، و القرآن ، فقال تعالى " يا أيها الذين أمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم " صدق الله العظيم

و ثانيها : فلسفة هندية تقوم على رياضة النفس على التحمل و الانقطاع عن الملاذ.

و ثالثها: ما كان يظهر من بعض الديانات من الحرمان . و سرى إلى المسلمين من بقايا الديانات القديمة . و مع أن الإسلام نهى عن الرهبانية لأنها من ابتـــداع النصارى. كما قال تعالى" وقفينا بعيسى بن مريم و آتيناه الإنجيل و جعلنا فى

قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة و رهبانية ابتدعوها ما كتبناهـــا عليـــهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها . فآتينا الذين أمنوا منهم أجرهـــم وكثير منهم فاسقون " صدق الله العظيم

وقد سرت بعض مبادئ الرهبانية إليهم بمقتضى الاختلاط ، ولبقايـــا الديانـــات القديمة فى نفوسهم ، ولقد قيل : إن الصوفية كانت تقليدا أو اتباعا لأهـــل الصّفّـــة الذين كانوا يعيشون فى المسجد - مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم- فى عـــهد الصحابة لا مأوى لهم غيره ولا ملجأ لهم سواه . ثم يقول الشيخ أبو زهرة : ومهما يكن مصدر الصوفية و سبب شيوعها بين المسلمين فإننا نجد فيها نوعا من التشـــبه بالرهبنة . و إن لم تكن مماثلة لها من كل الوجوه . فإن أهل التصوف يـــتزوجون ولا ينقطعون عن الدنيا انقطاع الراهبين ، و لا يموتون موتا حكيما ، كمـــا يعـــبر القانونيون إذ يعدون الرهبنة موتا حكيما . و لا شك أن الذين يعكفون في الخانقـــاة ويقيمون فيها يشبهون الرهبان في الأديرة . وإن كان مـــن ســـكان الخانقـــاة مـــن يتزوجون و ينجبون الأولاد .

و في الحق: إن الصوفية لها جانبان : جانب الخير . وهو الاتجاه إلى الله تعالى والاستجابة له . و أن يكون قلب المؤمن عامرا بالإيمان ذاكرا لله تعـــالى دائمـــا . مشرقا بنوره يطلب من الدنيا ما يقوى به على عبادة الله تعالى ، وطلب ما عنده في الآخرة فلا ينصرفون عن الدنيا . ولكن يطلبونها على أن خيرها مطيـــة الآخـــرة وطريقها . والجانب الثاني: و هو ظاهر في بعض المتصوفة . وهو الانقطاع عـــن الدنيا . وذلك وجه لا يريده الإسلام . ويظهر ذلك في الانصراف إلى الذكر الـــذي يكون معه حركات .

واذا كنا قد ذكرنا بشيء من التفصيل صلة التصوف بالفلسفة ، وأصـــل كلمـــة تصوف ، وذكرنا ما من شأنه أن يوضح أن التصوف الحق لا يخالف الاسلام فلكي تكتمل الصورة . لا بد من أن نتعرض لنشأة الحياة الروحية الإسلامية و تطورها .

و مهما يكن من أمر ما قيل في شأن التصوف الإسلامي من حيث منابعـــه أو روافده ، فإنه يجدر بنا هنا أن نشير بإيجاز إلى نشأة الحياة الروحيـــة الإســلامية وتطورها فنقول:

إن الحياة الروحية: هي الحياة التي يخضع فيها الإنسان لألوان مـــن مجــاهدة النفس وكشف حجاب الحس ، و تصفية القلب ، و قطع العلائق التي تفسد عليـــه صلته بربه وبأشباهه من بني الإنسان . ثم هي بعد هذا كله تـــأمل فـــي الكـــون ومشاهدة لمبدعه ، والاتصال بالحقيقة العليا ومعرفتها معرفة يقينية لا يأتيها الشـــك من بين يديها ولا من خلفها .

و لقد نشأت أول ما نشأت في الإسلام من التقشف والورع و التعبـــد والزهـــد والتقوى . . . و ما الى ذلك من انصراف عن الدنيا ، و إقبال على الديـــن ، ممـــا كان عاما بين المسلمين في حياتهم الأولى ، تلك الحياة التي كان الرسول وأصحابه فيها مثلا عليا يتبعها المسلمون في القول و العمل .

ثم اختلطت بعد ذلك بعناصر أجنبية عن الإسلام . منها ما هو ديني بحـــت . أو فلسفي بحت . ومنها ما هو مزيج من الدين و الفلسفة . وظلـــت تلـــك العنـــاصر الأجنبية تعمل عملها في نفوس محبيها على تعاقب العصور حتى تطـــورت هـــذه الحياة واتخذت صورا متنوعة . تتفق مع ما كانت عليه في بدايتـــها مـــن بعـــض الوجوه ، وتختلف عنه من وجوه أخرى .

فبعد أن كانت غاية المسلمين من الزهاد و العباد مجرد الزهد في متاع الدنيـــا ابتغاء رضوان الله . إذ بهذا الزهد يصبح وسيلة لتحقيق غاية أخـــرى أعـــز منـــه وأروع وأمتع وهي مشاهدة وجه الله . ثم أصبحت هذه الغاية بعد ذلك شـــيئا آخـــر يتجاوز الرياضة والمجاهدة والمشاهدة إلى الغاية القصوى التـــي حققـــها الإنســـان للوصول إلى مقام الفناء عن نفسه و اتصل بربه .

و هنا تستحيل الحياة الروحية من رياضة و مجاهدة ، إلى نظام روحي أو فلسفة دينية قوامها " مذهب روحي"

و المتأمل فى تاريخ الحياة الروحية الإسلامية يلاحظ: أن التصوف برياضاته ومجاهداته وأذواقه ومكاشفاته مرآة صادقة تنعكس عليها الصور المختلفة التي اتخذتها هذه الحياة الروحية في مختلف العصور الإسلامية . و العوامل التي أعانت على نشأتها و تطورها . و الدعائم النظرية و العملية التي أقيمت عليها . و المنازع النفسية والأخلاقية و الميتافيزيقية التي نزعت إليها . ومما لا شك فيه أن التصوف خضع كما خضع غيره من مظاهر الحياة الإسلامية لعوامل الازدهار و الانحلال . مما كان له أثره في جعل التصوف الإسلامي :

١- طريقة للعبادة ، وتهذيب النفس بقصد التقرب إلى الله ، والفرار من عذاب النار و الظفر بالجنة

٢- و مما كان له ثمرته بعد ذلك في جعله علما له موضوع ومنهج وغاية . وله ما يميزه عن غيره من العلوم عامة و عن العلوم الدينية خاصة . وعن علم الفقه بصفة أخص.

و من كل ما سبق نستطيع أن نقرر في يقين ما يأتي:

" التصوف عربي إسلامي "

إن الحياة الروحية في الإسلام قد بدأت بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه و ما كانوا يأخذون به أنفسهم من زهد في متاع الدنيا وإقبال على الله بقلوبهم و جهاد في سبيله بكل ما أوتوا من قوة الإيمان و حرارة العقيدة . و يكفي إشارة إلى الحياة الروحية في حياة محمد صلى الله عليه وسلم قول الدكتور عبد الحليم محمود :

تلك الحياة الروحية عند محمد صلى الله عليه وسلم التي كانت تشتد فتسيطر عليه سيطرة كلية و جزئية فتجعله يهرب من العالم : من تلك الحياة الدنيا . التي

ليست إلا زينة و لعبا و تفاخرا وتكاثرا بالأموال و الأولاد . . . يفر منها و يعتز لها ويذهب إلى غار حراء متأملا مفكرا . تلك الحياة التى هذا شأنها ، ليست إلا تصوفا لم تصقله - بعد - الرسالة ، فتصل به إلى أسمى مراتبه . فتحنث محمد في الغار الليالي ذوات العدد وحيدا قبل هبوط الوحي عليه . و اعتكافه في المساجد بعد البعثة . و حياة الراشدين الأربعة . وسيرة بلال وسلمان الفارسي و صهيب الرومي و أبي ذر الغفارى وغيرهم كثير من الصحابة وما قاموا به من تعبد و تزهد وتقشف ومجاهدة للنفس ومعاندة للشيطان . . . كل أولئك هم البذور الأولى التي انبثقت منها الحياة الروحية التي أثمرت بعد ذلك في حياة التابعين و من جاء بعدهم هذا ما قاله الدكتور عبد الحليم محمود فى مقدمته لكتاب المنقذ من الضلال.

و لكي نزيد الأمر وضوحا. يجدر بنا أن نضيف إلى ما تقدم قول الدكتور مصطفى حلمي:

و يتضح وجه الشبه بين حياة النبي صلى الله عليه وسلم وحياة الصوفية إذا وازنا بين حال النبي في الغار و بين أحوال الزهاد و العباد الذين عرفوا فيما بعد باسم الصوفية . وبهذه الموازنة نستطيع أن نرد طريقة هؤلاء بما فيها من رياضات ومجاهدات و أذواق ، وما انتهت إليه من كشف للحقائق و معرفة للدقائق إلى مصدرها الأول وهو حياة محمد الروحية الخالصة ، التي تجرد فيها من كل شئ فانكشف له وجه الحجة في كل شيء . وإذا به يعرف الله الواحد الأحد ، ويقرأ باسم ربه الأكرم . ثم يقول الدكتور محمد مصطفى حلمي بعد ذلك :

وإذا كانت المذاهب الصوفية قد تعددت حيث دارت حول الله و الإنسان والعالم وتعاقبت الصور المختلفة على الحياة الروحية ، فإنه قد أضيفت إلى كل هذا عناصر غريبة عن الإسلام بعضها فارسي أو هندي ، وبعضها يوناني أو مسيحي . حتى بدا التصوف و الحياة الروحية لكثرة ما اختلط بهما من هذه العناصر الغريبة وكأنهما مذهبان مخالفان لتعاليم الإسلام ، بعيدان عن أن يرد أحدهما أو كلاهما إلى مصادر إسلامية . و الواقع الذي لا جدال فيه أنهما مستمدان في الأصل من حياة النبي الأولى ومؤيدان بكثير مما ورد في القرآن والأحاديث القدسية والسنة النبوية .

و حذرا من الإطناب ، و حرصا على الإيجاز نذكر على سبيل المثال بعض تلك النصوص فيما يأتي:

(١) **القرآن الكريم :**

قوله تعالى (الله نور السموات والأرض) - (أينما تولوا فثم وجه الله) - (يا أيها الذين أمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه) - (و توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون . .) - (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا . . .) - (و توكل على الحي الذي لا يموت) . . . . الخ

فقد استدل الصوفية بهذا وغيره على تأييد مذاهبهم في التوبة و الصبر والتوكل والتأمل في صنع الله ، والذكر والعبادة والزهد في الدنيا . .. الخ

(٢) **الأحاديث القدسية :**

أخبر الرسول صلى الله عليه سلم عن الله تعالى أنه قال (كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني) .

فالصوفية يتخذونه مصدرا لمذاهبهم في الحب الإلهي .

كما أخبر الرسول عن الله تعالى قوله فى الحديث القدسى (وما تقرب عبدى إليّ بشيء أحب إلى مما افترضته عليه ، ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به،وبصره الذي يبصر به ، و يده التى يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها ...)

فهذا الحديث يتخذه الصوفية أساسا لمذهبهم فى الفناء ، الذي يقوم على فناء العبد في الرب أو الخلق في الحق .

(٣) **الأحاديث النبوية :**

قال صلى الله عليه وسلم (من عرف نفسه فقد عرف ربه)

فهم بهذا الحديث يدعمون مذهبهم في أن الإنسان إن عرف نفسه على أنها عـدم فقد تهيأ له أن يعرف ربه على أنه وجود .

و قوله : (أعدي أعدائك نفسك التي بين جنبيك) فهذا الحديث أساس لمجـاهدة النفس عندهم وقوله : (إن من عباد الله لأناسا ما هم أنبياء و لا شهداء فيغبطـهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله عز وجل) قال رجل : فمن هم ومـا أعمالهم لعلنا نحبهم ؟ قال الرسول " قوم يتحابون بروح الله عز وجل مـن غـير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها بينهم . و الله إن وجوههم لنور و إنهم لعلـى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس . ولا يحزنون إذا حزن الناس) ثم قـرأ : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

فهذه النصوص وغيرها ، مضافة إلى ما سبقت الإشارة اليه من سيرة محمـد صلى الله عليه وسلم التى سارها قبل الإسلام و بعده ، تبين لنا في جلاء : أن الحياة الروحية الإسلامية قد وجدت في حياة النبي وفي كتاب الله تعالى و سـنة رسـوله مصدرها الأول الذي استمد منه الزهاد زهدهم ، واستقى منه الصوفيـة أذواقـهم ووجد فيه أولئك وهؤلاء ما يؤيدون به مذاهبهم .

إلى جانب هذه العقيدة العظيمة التي اقتادت أولئك الأتقيـاء المخلصيـن إلـى التصوف ، كان هناك سبب قوي آخر دفعهم دفعا إلى أن يقذفوا بأنفسهم في بحـر هذا السلوك المأمون الجانب وهو: أنه لما اشتعل لهيب الفتنة السياسية الكبرى بيـن المسلمين في أواخر حكم عثمان بن عفان رضى الله عنه تفرقت صفوفهم ، وتشتت جموعهم ، ففكر فريق من المؤمنين المعتدلين الذين ليس لهم أهواء خاصـة ، ولا أغراض شخصية ، وتدبروا فى مشاهدة تلك العواصف العاتية ونتائجـها المقلقـة ونظروا فى قول الله جل جلاله : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا و اذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءا فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمتـه إخوانـا . . .) (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. . .) ثم نظروا إلى قول النبي الكريـم (إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل و المقتول في النار) .

تأمل أولئك المؤمنون المخلصون هذا كله . ورأوا الكارثة التي تسرع نحو الأمة الإسلامية بخطوات واسعه ، فلم يجدوا إلا الله موئلا يلتجئون إليه ، وسط هذه المعمعة الضالة ، و بين براثن تلك الفوضى الشاملة ، والفتنة العمياء ، التى لا تحمل إلى القلوب والعقول إلا البلبلة والاضطراب ، والتفوا يمنة ويسرة باحثين عن أثر للرابطة المقدسة التي كانت إلى الأمس القريب تصل بينهم في قوة ومتانة ، فلم يجدوا إلا القرآن الكريم الذي هو البقية الباقية المحفوظة من عبث الأهواء :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) فانكبوا عليه متأملين متدبرين ، فألفوا فيه لحسن الحظ جميع العناصر الضرورية لقواعد الحياة الصالحة ، التي تسمح لكل مؤمن مخلص أن يتلقى الإلهام الإلهي فى قبله . وهذا هو المبدأ لطريق التصوف "و من سار على الدرب وصل " فلم يسعهم إلا أن يهرولوا في هذا الطريق المأمون العواقب ، فرارا من تلك الفتن الصاخبة التي تقذف بها أمواج خضم السياسة المضطرب المهتاج . لهذا كان التصوف في ذلك العصر هو المفازة التي التجأت إليها قلوب المؤمنين لتتحصن بحصنها المنيع ، ضد تلك الهلكة المحققة .

يقول الدكتور عبد الحليم محمود في مجال ما قد يكون من تشابه بين الصوفية الإسلامية و ما يماثلها من البيئات الأخرى كما سبقت الإشارة إليه : إنه ما دامت الحقيقة واحدة فإن كل العقائد السنية تتحد في جوهرها ، و إن اختلفت فيما تلبسه من صور .

ثم يقول : ويجب ألا نعطي عناية كبيرة - حين نتحدث عن أصل التصوف - لتلك المناقشات التي لا تنتهي بين مؤرخي التصوف ، خاصة بتحديد الفترة الزمنية التي وجدت فيها لفظة صوفي فإن الشيء قد يوجد قبل اسمه الخاص . . . وعلى كل حال ففيصل الحق في هذه المسألة هو ما يأتي:_

إن السنة ترشد في صراحة لا لبس فيها إلى أن الشريعة و الحقيقة كلتيهما ينبعان مباشرة من تعليمات الرسول صلوات الله وسلامه عليه . والواقع أن كل طريقة صحيحة تعتمد على سلسلة تصل دائما الى الرسول . والحق أن التصوف

عربي إسلامي كما أن القرآن الذى يستمد التصوف أصوله منـــه مباشـــرة عربـــى إسلامى وإذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن فمن الطبيعي ألا يوجد قبـلى أن يفهم القرآن و يفسر و يتدبر . ولقد فسر القرآن أولا لغويا و منطقيا و كلاميا ولكن تفسيره صوفيا اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق و شمول . وإذا كـــان القـــرآن مصدر الشريعة والحقيقة معا فلا يمكن أن يوجد بينهما تناقض أو اختـــلاف مـا. وكيف يوجد الاختلاف و مصدرهما واحد . ؟ و كيف يوجد الاختلاف والحقيقـة لا تقوم إلا على الشريعة فى أساسها و في سندها ؟ .

من كل ما سبق نستطيع أن نقرر في جلاء أن أرومة التصوف الأولى - ، بـــل رموزه ومجازاته واستعاراته و كناياته وعباراته الفنية لم تكن دخيلة على الإســـلام من الملل والنحل الأجنبية ، كما زعم بعض الســـطحيين ، الذيـــن قلـــدوا الفقـــهاء الأقدمين الذين حملوا على بعض الأعلام من الصوفية الإجلاء حملتهم الجائزة حين هالتهم جرأة فريق المنتسبين إلى تلك الطائفة ، وروعهم افتئـــات ذلـــك الفريـــق المغالي على الشريعة فرموه بالخروج على دين الله ، والمروق عن طاعته ، بـــل بالزندقة والكفر والتذلف لأهل الأديان الأخرى .

فلما رأى بعض المستشرقين هذه الفتن المشتعلة ، وتلك التهم الخارجة عن حـــد الاعتدال ، اعتقدوا أن التصوف ليس من الإسلام في شيىء ، وما هم في ذلـــك إلا واهمون .

و عندما رأى بعض المعاصرين من المسلمين هذه الآراء الخاطئة ، اعتنقوهـــا على علاتها ، رغم بعدها عن الحق ، بعد العدم عن الوجود .

و من أمثلة هؤلاء المعـــاصرين مـــا ســـجله الدكتـــور زكـــي مبـــارك فـــي كتابه:(الأخلاق عند الغزالي) إذ قال ما نصه:

" و هذا التصوف الذي ترسم الغزالي آثار أصحابه ليس فى جملته مما تدعـــو إليه الشر يعه الإسلامية . وإنما هو مزيج من عدة مذاهب هندية وفارسيه و يونانية

نقلت إلى المسلمين ، وصادفت هوى في نفوس الزاهدين منهم . فوسموها باسم الدين، ووضعوا لها على حسابه القواعد والأصول "

و نحن نحسب بعد الذي قدمناه أننا لسنا في حاجة إلى التدليل على بطلان هذا الرأي ومعرفة مأتيه و مصادره .

وليس معنى هذا أن التصوف الإسلامي ظل طوال حياته بعيدا عن التأثر ببعض المبادئ الأجنبية . كلا . فإن تلك الدخائل التي اختلطت به فيما بعد ليست موضع جدل ولا نقاش . وإنما البرىء من هذه الدخائل هو أصوله الأولى ، وعناصره الأساسية ومبادؤه الرئيسية .

ومهما يكن من الأمر . فقد اهتدى الكثير من المؤرخين القدماء و الباحثين المحدثين في هذا الصدد إلى الحق القويم ، فأنزلوا اماجد الصوفية منازلهم الحقيقية وأسهبوا في العناية بحياتهم و شخصياتهم ، وأطنبوا في تفاصيل مذاهبهم وطرائقهم وتوسعوا في الإشادة بأحوالهم و مقاماتهم ، وأفاضوا في ذكر معارفهم وكراماتهم . ثم أيدوا كل ذلك بإرجاعه إلى الآيات والأحاديث وأنباء السلف من الصحابة والتابعين ، وأكثر من ذلك أن ادقاء المستشرقين المحدثين قد آمنوا بأن كنف التصرف وثيق . وحصنه مكين ، وطريقه مأمون العواقب ، والالتجاء إليه بإخلاص مضمون الثمرة ، محقق النتيجة . و سجلوا في مؤلفاتهم أن أعلام الصوفية الذين فروا بدينهم عن ضوضاء الفتنة إلى أحضان التنسك والتأمل ، إنما فروا من الدنس إلى النقاء ، وألقوا بأنفسهم في بحار النور ، و استجاروا من قدر الله بلطف الله . ولم يزيدوا في ذلك على أنهم إنما كانوا مؤتمرين بأمر الله الوارد في كتاب الله ، ومترسمين خطى رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ، والذي ما كانت أحواله الباطنية و أفعاله الظاهرية إلا وحيا يوحى إليه من مولاه ، فينفذه على أكمل صور العبودية ، وفي أسمى مراتب المعارف الدينية " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا "

الفصل الثانى

نماذج

من أهم الشخصيات التنسكية فى القرون الأولى للهجرة

- الحسن البصرى
- المحاسبى
- الحلاج

الحركة التنسكية

في القرنين الأول و الثانى

بان مما قدمناه آنفا أن الحركة التنسكية الإسلامية التي بهرت القدماء ، وفتنت المحدثين قد انبثقت بقضها وقضيضها من الكتاب الكريم ، و الأحاديث القدسية والنبوية وانتهلها أربابها من الحياة المحمدية – ظاهرها وباطنها – وقد بدأها النبى صلى الله عليه وسلم ، وسار الصحابة رضوان الله عليهم على نهجه السامي،واقتبسوا من أنواره السماوية و المتلألئة دون أن يشوه جمال ذلك أجنبي أو يدنس نقاءه دخيل كما يزعم السطحيون الذين يتخرصون بأن عناصر التصوف الإسلامي أجنبية كما أسلفنا .

ولقد توالت هذه الحركة التنسكية بعد الصحابة عند التابعين في كثير من البساطة. بحيث كانت مقوماتها الذاتية هي التأمل في آيات القرآن ، و محاولة استكشاف أسرارها العميقة و اقتناص مراميها البعيدة ، :كالزهادة وكبح جماح النفس والاعتكاف والتنفل والتهجد . وكان هؤلاء الزهاد و العباد في الكوفة و البصرة ومكة والمدينة ودمشق . وقد وصلت إلينا أسماء الأولين منهم عن طريق القوائم التي سجلها الجاحظ وابن الجوزى .

ومن مشاهيرهم في القرن الأول : الربيع بن الهيثم . المتوفى في سنة ٦٧هـ وعلقمة الكوفي . ومجاهد بن جبير المخزومي المكي المتوفي في سنة ١٠٤هـ وكان تلميذا لابن عباس ، و قد نشر تفسيره للقرآن ، و لكن أعظم هذه الطبقة على الإطلاق هو"الحسن البصري" الذي عده بعض أدقاء المؤرخين القدماء بين أقوى الشخصيات الإسلامية في عصره ، وسواه في باب الزهادة بعمر بن الخطاب في باب سياسة الدولة.

أما في القرن الثاني : فإن التنسك الإسلامي قد صار أقوى منه في القرن الأول أثرا وأبعد انتشارا ، وأصبح طابعه المميز له هو أنه لا ينفصل عن الحياة العامة ، وكل زاهد قد انتهى إلى إدراك أن واجبه يقضي عليه الخروج من عزلته ، و مداومة

النصح المخلص لكل من يتصلون به من أعضاء الجماعة الإسلامية ، و لا ريب أن النتيجة الأولى لهذه الجهود المبذولة من جانب الشيوخ المتنسكين لإرشـــاد الأفــراد والجماعات هى الترابط الوثيق بينهم وبين الشعب ، ذلك الترابط الذي لا نـــزال نشاهده اليوم بين شيوخ الصوفية و مريديهم من المؤمنين ، أمـــا رابعـــة العدويـــة فسوف نفصل الحديث عنها في مكانه من هذا البحث وسنلمح إلـــى هـــذه الحركـــة التنسكية في القرن الثانىبإلمامة عاجلة بادئين بالبصريين مثنين بالكوفيين ، و لكننـــا نرى من الحق علينا قبل التعرض لهذين الفريقين أن نشير الى الخصائص الذاتيـــة لكليهما.

كان البصريون من التميمين المنعطفين بفطرتهم إلى الواقعية ، و النقد الجـــاف ووضع القواعد التى يندر فيها الاستثناء ، وتحديد قواعد اللغة العربيـــة ، و كبـــح جماح الشعر ، وحصره في دائرة الحقيقة بقدر الإمكان ، وكانت آراؤهم سنية مـــع النزعة إلى حرية الفرد في آراء القدرية ، و كانوا يقولون بوجوب استكناه بواطـــن الأحاديث ، ورد الأخذ بظواهرها، ولهذا كان من الطبيعي أن يحتفظ نساك البصـــرة بشيء من هذه الصفات ، وهذا هو الذي حدث فكان رئيس نساكها الحسن البصـــري زاهدا من الطراز الأول ونا قدا عميقا ، و منطقيا سليم العقل ، و قوي الحجة بهيئة تسترعى الانتباه ، وسنيا معقولا من أنصار حرية الفرد ، كما سنلمح إلى ذلك .

أما الكوفيون : فقد كانو بطونا يمنية تنزع نحو المثالية العليا في كل شيء :كان شعرهم افلاطونيا دون أن يعرفوا أفلاطون ، وخيالهم متطلعا نحو الكواكب،وكانوا يقولون بالأخذ بظاهر الحديث ، ويتشيعون للأمام على كرم الله وجه ، و يدينـــون بمبادىء المرجئة . وقد ظهرت هذه النزعات كلها في نساكهم . فكانوا مثلا رائعـــة في التدليل على ما نقرره هنا من الفروق الواضحة بيـــن البصرييـــن و الكوفيـــن ومهما يكن من الأمر فإليك هذه الإلمامة العاجلة عنهم .

الحسن البصري

ولد الحسن البصري بالمدينة في السنة الحادية والعشرين من الهجرة ، و تربى بالبصرة . وكان في الرابعة عشر حين قتل عثمان – فهاله و هو لا يزال في زهرة شبابه – ذلك الحادث المفزع ، وما أحاط به من فرقة بين صفوف المسلمين. فأثر في قلبه البريء ، و عقله الساذج ، تأثيرا شديدا دفعه إلى الامتعاض من تلك الحركة السياسية التي بلبلت العقول ، وزعزعت القلوب . و لم يسعه إلا أن يقف من تلك الفتنة موقف المحايد الفار بدينه من الشبه واختلاط الآراء . وقد كان من طلائع أولائك الذين حملهم هذا الأخطبوط على أن يلقوا بأنفسهم في بحر التأمل والتنسك ، لينجوا بعقيدتهم من هذا الجحيم . وبعد أن استقرت الأمور السياسية نفر إلى الجهاد مع المقاتلين في سبيل الله فيما بين سنتي خمسين وثلاث وخمسين . ثم عاد إلى البصرة . وهناك أسس مدرسته . وحوالي سنة خمسة وستين هجرية ازدهرت مدرسته ، وسطع اسمه كخطيب مفوه ومجادل متفوق ، وظل يتلألأ في سماء العالم الإسلامي إلى سنة ٨٥هـ . و في سنة ٩٩هـ عين قاضيا . وأخيرا توفي في مستهل رجب سنة ١١٠هـ.

مذهبه التنسكي:

لقد ترك " الحسن البصرى " مؤلفات قيمة من المواعظ و التفسير والحديث،وعددا ضخما من الآراء الثاقبة ، والنظريات الممتازة في المبادئ الإسلامية ، التي كانت قد نشأت من نتائج الفتنة السياسية ، ودار حولها ذلك الجدل العنيف الذي سجله التاريخ بين فرق المسلمين .

و لكن الذي يعنينا هنا من إنتاجه الواسع هو مذهبه التنسكي فحسب . وقد صدر في هذا المذهب عن أساس واضح هو احتقاره هذه الحياة التي نهايتها الهلكه.. ومصيرها الفناء ، والتي احتقرها الله سبحانه وتعالى فسماها بالدنيا ، ووصفها بأنها لهو ولعب ، والتي قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: إنها لا تساوي جناح بعوضة . وكان الحسن يدعو للحزن والورع الذي هو أصل الدين . والاستماع إلى

كلام الله . وعندما وصل هذه المنزلة كان قد أسس ما أسماه " علم القلوب والخواطر " أو ما يدعوه الباحثون المحدثون بـ " السيكولوجية التنسكية "

ومما يلفت الانتباه والأنظار في مذهب الحسن البصرى : أنه كان يؤسسه على التدخل الدائم للفكر في حياة المؤمنين المتأملين ، وكان يأمر مستمعيه بالالتجاء إلى العقل في تحليل عظاته ، ليكون تأثيرها في إرادتهم عن اقتناع و إيمان . و لقد كان لمواعظه رنين أخذ يجلجل في أنحاء البلاد الإسلامية ، ويكون عقائد شبابها، ويمتن أخلاقهم ، و يطهر سرائرهم ، و يدفعهم إلى الاستقامة . ولقد كانت غايته الأولى والأخيرة هي العثور على المنزلة التنسكية الكاملة ، وهي الفوز بالرضا . وقد أحنق عليه ذلك بعض الطوائف ، واستكثروا عليه هذه الميزة التي سما بها عليهم . فجعلوا يكيدون له ، ويعلنون عليه العداء الصريح . ولكن كافة الأمة والمخلصين من خاصتها و صفوتها لم ينسوا له هذا الجهاد النفسي الأكبر . بل إن بعض مؤسسي الطرق الصوفيه.. فيما بعد ، قد أرجعوا إليه عن طريق الإسناد أسس طرقهم ، وأعلنوا رجوعها إلى مبادئه التنسكية الرفيعة ، و صرحوا بأنه كان قطب الغوث في زمانه .

ويعتبر هذا الصوفي من أبرز الأمثلة بين أعلام الصوفية الأولين ، الذين عرفوا منزلة العقل ، و لم يغضوا من قيمته . وهو من أقوى الشخصيات الإسلامية على الإطلاق .

و مما يلفت النظر في ثقافة هذا الأستاذ: أنه لم يكن في علم الكلام أدى منه في التصوف .. ومما يمتاز به أنه أسس مذهبه في التنسك على وجوب مداومة الفكر،والتأمل طوال حياة المؤمن . و إذا أمعنا النظر في منهجه ألفيناه يشبه منهج سقراط الذي يعتمد على العقل في اجتذاب سامعيه – في شيء غير قليل من الوداعة – إلى ملاحظة الضمير ، وإلى تطبيق مذهبه في الزهد التنسكي . ولكنه لم يشأ أن يضع أتباعه على رأس طريق التصوف إلا بعد أن التجأ إلى نور العقل ، الذي لم يخلقه الله عبثا ، ولم يخاطب في تكليفه إلا إياه

تلامذة الحسن البصري :

استمرت هذه الحركة بعد وفاة الحسن البصري فى أول القرن الثاني . فـأخذت تنمو و تعظم بفضل تلاميذه من البصريين " كمحمد بن واسع " الـذي توفـي فـي إحدى حروب الجهاد في سبيل الله في سنة ١٢٠هـ . و " مـالك بـن دينـار " المتوفي سنة ١٢٨هـ . و الذي أسس بدوره مدرسة تنسكية ضمـت عـددا مـن التلاميذ كان لهم في نشر التقوى والورع أثر بعيد الغور . و حسبنا أن نذكر مـن هؤلاء التلاميذ " رباح بن عمرو القيسى " و على الأخص " عبد الواحد بن زيـد " المتوفي سنة ١٧٧هـ . والذي أسس جاعة من النساك الشهيرة في مدينة عبدان . والذي قام تلميذه " أبو سليمان عبد الرحمن الداراني" المتوفي سـنة ٢١٥ هـ . بتأسيس المدرسة البكرية فيما بعد . ومما هو جدير بالعناية عند الداراني أنه هـو الذي رسم الخطوط الأولى لهيكل فكرة الأحوال والمقامات الصوفية التي كان لـها على التوالي كل هذا الرنين الذي صك الأسماع ، و بهر الأبصـار فـي الشـرق والغرب على مر الحقب وكر الأزمان . ومن أصدقاء الداراني " أحمد بن عـاصم الإنطاكي " المتوفي سنة ٣٢٠ هـ . والذي كان الداراني يلقبه بجاسوس القلـوب ، لفرط تحليلاته السيكولوجية للأفئدة والخواطر ، و تغلغلاته إلى أعماق النفـوس ، و كشفه لخفايا الضمائر . و لا جرم أن هذه الشخصية العظيمة تعتـبر فـي مقدمـة الشخصيات التي شرفت البيئة الإسلامية ، و كانت مؤلفاته التي نشرها تلاميذه منبعا لتعريف العلماء و الباحثين بتفاصيل النماذج الأولـى للزهـادة الإسـلامية ، قبـل المحاسبي . ومن أعلام مؤسسي المدارس التنسكية في البصرة " فضل بن عيسـى بن أبان " منشئ المدرسة الفضلية التى حكم المتعصبون من خصومها بأنها قدرية . ومنهم أيضا " أبو بشر صالح المري " المتفي سنة ١٧٢هـ . و الذي اشتهر إلـى جانب ورعه و زهده بالفصاحة و البلاغة ، والمقدرة الفائقة على الخطابة .

أما نساك الكوفة السنيون فمنهم " أبو هاشم عثمان الكوفي " المتوفي سنة ١٦٠ هـ " و أبو ذر عمر " المتوفي سنة ١٥٠ هـ . و هو الذي كون عددا عظيما من التلاميذ كان لهم أثر لا يجحده أحد من المؤرخين .

أما صوفية الشيعة من الكوفيين فمنهم كثيرون . و لكننا نكتفى منهم بذكر " عابدك أنباتي " مؤسس النحلة الأنباتية التي كانت تدعى بالعابدكية .

الحركة التنسكية في القرن الثالث

يعتبر القرن الثالث الهجري عصر ازدهار لأشهر المدارس الصوفية . إلى حد أن أطلق عليه بعض المستشرقين اسم " العصر الذهبي " و في الحق أنه بعد أن كانت الحركة التنسيكية تتمثل في أفراد منعزلين ، أو في مدارس ناشئة ، تاسست في الكوفة أو في البصرة . أصبحت في ذلك العصر قوة صوفية يحسب حسابها،وقد اتخذت من بغداد عاصمة العلم والثقافة مركزا لها ، وجعلت ترسل منه أشعة فتوحاتها الربانية ، وأنوار فيوضها الصمدانية ، إلى بقية الأصقاع الإسلامية فتضيء ظلماتها ، و تبدد جهالاتها .

لقد كان أعلام الصوفية في تلك الحقبة من مشاهير أهل الحديث . وكانوا يبذلون جهودهم في أن يعيدوا الطقوس الدينية الظاهرة ، والحياة العملية للجماعة إلى المثل العليا التي تركها النبي الجليل . والتي كانت مصابيح الأفكار وأنماط السلوك ، قبلى أن تنشأ البدع وتستيقظ الفتن . وكانوا أساتذة لعلوم السنة و معارفها . و كان لهم تلاميذ يجتمعون حولهم . ويقاسمونهم حياتهم ، و يتسابقون إلى خدمتهم . ولكنهم كانوا يمتازون عن باقى الأساتذة بالزهادة والانصراف عن أعراض الدنيا ، بقوة الشكيمة والصبر على المكروه . غير أنهم إلى ذلك العهد لم يكن لهم قواعد خاصة ولا مذاهب سرية ، و لا تعاليم مضنون بها على غير أهلها . مما جعل التصوف منذ ذلك الحين ينشأ وينمو ويتخذ أعماقا معينة ، وأغوارا بعيدة ، ويرتدي صورا متنوعة ، تبدو تارة تحت اسم الأحوال ، وأخرى بعنوان " المقامات " إلى غير ذلك مما كان له في تاريخ الحركة التنسيكية العالمية شأن عظيم ، وأهمية قصوى كما سنشير إلى ذلك في مواضعه . وقد شئنا أن نبدأ حديثنا عن هذه النماذج العليا بالمحاسبي وإليك عنه هذه الإلمامة .

المحاسبي

هو أبو عبد الله الحارثي العنزي . ولد في البصرة في سنة ١٦٥هـ . ولما نشأ ارتحل إلى بغداد و فيها تلقى ثقافة واسعة ، ودرس فقه الشافعية ، فكان أحد أعلامهم الممتازين ، ثم تبحر في علم الكلام . ومما يبدو جليا للباحثين أن تكوين عقليته الممتازة، ومعارفه الواسعة كان نتيجة لجهود عدد غير يسير من الأساتذة،دفعتهم الأقدار إلى التضافر على تربية هذه العقلية . ولكن الذي يلفت النظر في دراسة شخصيته هو أنه لم يحاك أحدا من أساتذته . ولقد كان من أنصار العقل،ولكنه يهاجم المعتزلة في آرائهم المتطرفة .

وكان يستخدم مفرداتهم ومنطقهم في حملته عليهم . و لعله بهذا يكون هو الذي رسم الخطة البارعة التي سلكها الإمام الغزالى في هجومه على الفلاسفة . مستخدما سلاحهم ومنطقهم وعباراتهم واصطلاحاتهم ، مع وجوب تسجيل الفروق للزمن وانتشار الثقافة، واتساع الأفق . ولكن العناصر الأولية لا ينبغي أن تمر أمام الباحث مهملة . أو أن تنسحب عليها أستار التغاضي و النسيان .

ولقد ظل المحاسبى يزاول التعليم والوعظ حتى نيف على الستين . و كان أول من تفرد بإحراز الاحترام العميق للمرويات الإسلامية ، والتنقيب الدقيق عن الكمال الخلقي الباطني ، والانشغال التام بالتعريفات الفلسفية المضبوطة . وأنه لم يكن يرى بين هذه العناصر التي تبدو أمام العامة متعارضة أي تنافر أو اختلاف ، بل كان مؤمنا بأن اجتماعها و تنافرها هما الوسيلة المثلى لنصر الدين ، و الرفع من شأن الكمال البشري، الذي يجب أن يؤسس على العقل الذي وصفه الخالق جل وعلا بأنه أعز خلقه وعلى الوحي الذي هو تاج المعارف الإنسانية .

و أخيرا هجر التعليم في سنة ٢٣٢ هـ . واعتزل الحياة العامة زهاء عشرة أعوام ألقى بنفسه أثناءها بين أحضان التصوف . بعد أن تأمل ردحا من الزمن فيما هو مقبل عليه .

وبيان هذا أنه اهتدى إلى التصوف بعد أزمة باطنية ، حدثنا عنها في كتابه (الوصايا) و هو نوع من الاعترافات السيكولوجية يشبه كتاب (المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي) إذ أنبأنا في ذلك الكتاب بأن القلق قد استولى على مشاعره النفسية ، حتى رأى الجماعة الإسلامية قد انقسمت الى اثنين وسبعين فرقة،دون أن يعرف أحد أيها على حق .

وإذ ذاك جعل يتأمل القرآن طويلا . فقذفت به تأملاته العميقة ، وملاحظاته الدقيقة، في بحر التنسك . إذ أيقن بأنه هو الوحيد الذي يحول بين المرء و تلك اللذائذ الدنيوية التي هي منشأ الشرور ، ومصدر الأهواء ، التي مزقت جمع المسلمين ، و فرقت صفوفهم ، كما آمن بأن هذا التنسك هو الضمان الوحيد الذي يحتفظ بالشخص في إطار الحقيقة .

حقا: لقد اشتهر المحاسبي بالزهد القاسي في عصره ، حتى لقد قيل إنه كان إذا اشتهى لونا من الطعام ومد إليه يده تحرك في أصبعه عرق إنذار له. فيمتنع عنه وقد أطلق عليه لفظ " المحاسبي " لكثرة محاسبته نفسه على ما تأتيه من أعمال ولقد قال عنه القشيرى: إنه كان عديم النظير في زمانه علما وورعا ومعاملة وحالا .

غير أن هذا الزهد – حتى في عصر اعتزاله المجتمع – لم يحل بينه وبين استمرار الاستزادة من العلوم الظاهرية ، والارتواء منها ، كما أحنق عليه جميع علماء الكلام ، وقد ظهر هذا الحنق في حملة أحمد بن حنبل وأنصاره عليه . تلك الحملة التى كان من نتائجها أن اضطهد المحاسبى . وانقطع عن المجالس العلمية العامة حتى توفي سنة ٢٤٣هـ .

ونحن لا نستطيع أن نقف صامتين بإزاء هذه المآسى ، التي كانت تمر ولا نزال نشاهدها من حين إلى آخر مرتدية ثوب الدين . والدين منها براء . لأن ما مصدره السماء يجل عن الفتنة ، و يتعالى عن الأغراض الخاصة ، و الأهواء الشخصية .

و نحن فيه يتعلق بالمحاسبي : فإننا إذا جزمنا ببراءة الإمام أحمد بن حنبل لما نعلمه من نقائه وإخلاصه فيما يقول ويفعل و يرى ويحكم . فإننا لا نستطيع أن نجزم ببراءة أشياعه ولو من التعصب والحدة وسرعة الغضب على أقل تقدير . وفوق ذلك فإن نزعة أولئك الأشياع كانت معادية للصوفية ، ميالة إلى المادية ،حتى وصلت بغلاتهم إلى درجة التشبيه والتجسيم .

مؤلفات المحاسبي:

أما مؤلفاته: فمن أهمها كتاب " الرعاية لحقوق الله " و هو كتاب جليل في المبادئ التي يجب على المتصوفة اتباعها . ويعتبر منهجا واضحا و كاملا للإرشاد النفساني . وقد عكف الغزالي قبل أن يؤلف كتاب الإحياء على دراسته،والعمل بما فيه زمنا طويلاً وظلت تعاليمه زاهية في البيئات الصوفية ولاسيما لدى الشيعيين عدة قرون ، رغم ما وجه إليهم من حملات الخصوم المغرضين . ولقد وصفه الأستاذ " ماسينيون " بأنه مرشد جدير بالإعجاب للحياة الباطنية .

أما آراؤه فمن أهمها : وجوب العمل على تطوير القوى الباطنية للإنسان بوسيلة قاعدة مرنة تقتاد سلوك الحياة الخارجية . وهي العبودية لله وحده ، وتخلية القلب من كل ما عداه . ولا ريب فى أن قاعدة الحياة هذه إذا اتبعت كما ينبغي،فإنها تولد في الروح أحوالا و فضائل يرتبط بعضها ببعض حسب نظام محدد .

أما تأثير مدرسته: فقد كان قويا إلى حد بعيد ، و على الأخص في تنقية الوجدان البشري . وقد كان له عدد ضخم من التلاميذ المباشرين وغير المباشرين . وقد استلهم "الجنيد " من معارفه واستضاء بأنواره . و انتهل " ابن عطاء " من معين فتوحاته . ورأى " " الأشاعرة " فيه طليعة إصلاح مدارسهم . وداوم "الغزالى" على الالتجاء إلى تعاليمه، وأكثر من الإستشهاد بمنتجاته . وأخيرا كان أحد الأعلام الثلاثة الذين انعقد لهم لواء زعامة الشاذلية رحمه الله رحمة واسعة .

نشأة المقامات ونموها

مما لا سبيل إلى الريب فيه أن منهج الصوفى الحقيقـــى: هـــو بحـــث بـــاطنى شخصى ، وتأمل فى حكمة الأوامر الإلهية ، ليبرزها فـــى صورتـــها الحقيقيـــة الناصعة،وليظهر عبادة الله فى كمالها الذى خفى على العامة والجماهير ، فأحـــاطوه بكثير من الخرافات والأساطير .

وقصارى القول: أن قوة أفكار الصوفية تتولد من تأملاتهم المتجددة المســـتأنية العميقة المتحمسة العملية ، التى يديمونها فى تدبر معانى القـــرآن ، ولا جـــرم أن الموفقين منهم يظلون عاكفين على هذا التأمل ، حتى لكأنهم يشعرون برنين القـــرآن يجلجل فى قلوبهم ، على صورة مصغرة مما كان يحدث للنبـــى صلـــى الله عليـــه وسلم.

ومما هو غنى عن البيان أن غاية أعلام الصوفية من بسط نظرياتهم ، وعرض عظاتهم ، هى العمل المستمر المؤسس على الفكر الدائم ، والصادر عن قوى النفس الثلاث : العقل ، والذاكرة ، والإرادة . ولا شك فى أن العمل الذى هذا شـــأنه هـــو الذى يحقق اتجاه الفرد إلى ربه ، والسير نحوه من خلال الليل المظلم المخيم علـــى الحياة المادية .

ومهما يكن من الأمر. فإن هذا التأمل العميق من جانب صوفية المسلمين فـــى معانى القرآن ، وفى الحياة الروحية للرسول ، قد إنتهى بهم إلى الإســـتيقان بـــأن الزهادة التامة والإخلاص المطلق يلقيان بقلب المؤمن على معـــراج النقـــاء ، وأن الحالات السيكولوجية لهذا القلب تصير ثابتة ، وأن الوصول إلى هذه المرتبة يتحقق عن طريق التقدم المنظم المطرد ، الذى يؤلف المقامات المتتالية التى تسمح للســـالك بأن يقتاد تأملاته فى نجاح ، حتى ينتهى إلى عتبة الاتصال المراد ، ولا ريب فـــى أن هذه المقامات تختلف باختلاف أعمال الصوفية ، وثقافاتهم الخاصة ، ونزعاتـــهم الشخصية ، واستعداداتهم الفردية . ولقد كانت تلك المقامات فى مبدأ الحياة الصوفية الإسلامية قليلة العدد . ولكنها بواسطة التحليلات السيكولوجية المثابرة ، جعلت تنمو

وتتضاعف ، حتى لقد وصلت عند بعض أولئك الأعلام إلى مائة ، كما سجل ذلـك "أبو إسماعيل عبد الله الأنصارى الهروى " فى كتابه القيم (منازل السائرين إلـى رب العالمين) . ولما كان هذا الكتاب من أروع الكتـب التـى عرضـت لـهذا الموضوع . فإننا نؤثر أن نقف عنده هنيهة قصيرة مجملين منه ما يعنينا فى هـذا الموقف على النحو التالى :

يقسم الأنصارى المنازل الصوفية إلى عشرة أقسام: يشتمل كل قسم منها علـى عشر منازل ، أو عشرة مقامـات ، فالقسـم الأول: يدعـى " بالبدايـات . ويلـح الأنصارى ، كما يلح جميع رؤساء الصوفية على ضرورة العناية بمقامـات هـذا القسم ، لأنها هى الأساس الذى عليه يقام البناء كله . وبالتالى لا يكون هذا البنـاء متينا إلا بمقدار متانة أساسه. وهذه العناية تتلخص فى أنه يجب علـى السـالك أن يراقب نفسه في دقة ونية طاهرة وعزيمة صادقة ، بإزاء تنفيذ أوامر الكتاب الكريم ومتابعة السنة الغراء . أى أن يكون مسلما بالمعنى الكامل لـهذه الكلمـة . **<u>ومـن مقامات هذا القسم</u>** " اليقظة " وهى تهدف إلى دعوة القلـب إلـى هجـران نـوم الغفلة،بأن يتنبه إلى النعم التـي حبـاه الله بـها، وأن يـدرك خطـورة الذنـوب ونتائجها،وأن يتأمل فى الأوقات الماضية الضائعة ، وفى ضـرورة العمـل علـى تعويضها بالعمل الصالح فى الحاضر والمستقبل .

<u>ومن هذه المقامات</u> " التوبة ، والمحاسبة ، والإنابة ، والتذكر " ومعنـى هـذا مراقبة النفس والحيلولة بينها وبين النسيان . **<u>والقسم الثانى هو المسمى بـالأبواب</u>** وهى المنافذ التى يدخل منها السالك إلى الرحاب الأسمى ومنها: "الإشفاق،والخشوع والزهد ، والرجاء ".

والقسم الثالث هو " المعاملات " ومعناها: الخطط التى يسـلكها المريـد فـى تصرفاته لمتابعة طريقته الأولى بعد أن يجتاز الأبـواب . **<u>ومـن مقامـات هـذا القسم</u>**،"التوكل " ، **<u>والقسم الرابع</u>** هو " الأخلاق " : ومؤداها أن سـلوك الصوفـى المخلص مع ربه ينتهى به إلـى اكتسـاب أخـلاق فاضلـة . **<u>ومـن مقاماتـه</u>** : "الرضا،والشكر ، والحياء ، والصدق ، والإيثار والتواضع " وما إلى ذلك ، **<u>والقسم</u>**

الخامس هو "الأصول " ومجملها: أن مجرد اكتساب الأخلاق الفاضلة يمنح الصوفى الرغبة الزائدة فى شدة الإتصال بربه ، وهو لتحقيق هذا يجب عليه أن يختار أحد تلك المبادئ العشرة التى هى مقامات هذا القسم ، وهى المقامات التى يؤسس عليها تقدمه فى طريقته الصوفية . وأهم هذه المبادئ :الإرادة التى بها يتم له الاختيار. وهنا ينتهى الجانب الإيجابى ، والذى يقابله الجانب السلبى ، الذى يكون فيه الصوفى مرادا بعد أن كان مريدا ، ومحبوبا بعد أن كان محبا، تصديقا لما روى عن رب العزة (وإذا تقرب منى عبدى شبرا تقربت منه ذراعا ، وإذا تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا) وما هذه المقاييس المادية إلا تقريب للأذهان، تعالى الله عنها علوا كبيرا .

الحلاج

لا توجد شخصية من الشخصيات الصوفية في القرون الأولى للهجرة،وقد ظفرت من عناية الجماهير و اهتمامها بمثل ما ظفرت به شخصية " ابن عبد الله الحسين بن منصور الحلاج " بل إن حياته وآراءه و عباراته و شطحاته قد استهوت ولا تزال حتى الآن تستهوي الجماهير في جميع الأصقاع التي يسود فيها الاسلام.وأكثر من ذلك: فإن عددا غير يسير في البقاع الإسلامية لا يزالون مؤمنين بأن الحلاج من أئمة الأولياء ذوى الكرامات . وذلك كخراسان و الأهواز وما إليهما. وليس هذا فحسب . بل إن العلماء والباحثين والكتاب والشعراء في مشارق الأرض ومغاربها ، و في ماضي العصور الإسلامية و حاضرها، قد افتتنوا بهذه الشخصية العظمى افتتانا بالغا ، و ألفوا في نواحيها المختلفة مئات الكتب ، و أنشأوا مئات القصائد و المقطوعات بلغاتهم المتباينة،وأساليبهم المتنوعة. من ذلك مثلا ما حدثنا به المستشرق الكبير الأستاذ "ماسينيون " من أنه قد ألف عن الحلاج أكثر من تسعمائة مؤلف: منها خمسمائة باللغة العربية ، و أكثر من مائتين باللغات الأوربية ، و مائة باللغة الفارسية وسبعون بالتركية ، والباقي بالهندية والسريانية و العبرية . وهذا في منتهى العجب خصوصا إذا عرفنا أن أشياع طريقته قد انقرضوا منذ القرن الخامس . و أن خصومه من معاصريه قد سوغوا تعذيبه وقتله بمسوغ ديني محدد . أو على الأقل ألبسوا هذا التسويغ رداءا دينيا من شأنه أن يدفع المسلمين إلى إهمال الحلاج،والاستهانة به ، بل إلى بغضه و مقته .

و لا ريب فى أن هذه الظاهرة تحمل الباحث العصري على الاستيقان بأن باب النقاش في هذا الحادث العظيم لم يغلق بعد . و تدفعه إلى العودة إليه في قوة وعناية لعله يعثر بين ثنايا التاريخ على بواعث سياسية أو اجتماعية أو شخصية ، تكون هي التي دفعت أولئك الخصم إلى اقتراف ما اقترفوا بإزاء هذه الشخصية الصوفية لكى يرضى هذا الباحث ضميره من ناحية ، و يبرز الضمير الإسلامي أمام العلماء

المحايدين نقيا منزها عن شوائب الظلم والوهم والتعصب من ناحية أخرى . وهـذا هو الذي حدث فعلا. فمن المثقفين من رأى أن الحلاج شخصية قوية ، قضت عليها بالإعدام سلسلة من الظروف السياسية والدينية التي تمثل ذلك العصر أكثر مما تمثل روح الإسلام الحقيقية ومبادئه الأساسية . وأن الحلاج كان من الأولياء والصالحين. وقد أيدوا هذا وبذلوا في التدليل عليه جهودا مقدرة مشكورة . و ممـا لا ينبغـي إغفاله أيضا في هذا الصدد ذلك الأثر الأدبي الذي امتلأت به الأوساط الشعبية فـي مختلف البلاد الإسلامية ، كما شع من آفاق الصفوة من شعراء العـرب والفـرس والهنود والترك الذين اتخذوا من حادثة الحلاج المؤثرة منبعا صافيا ، انتهلوا منـه أبدع نماذج الجمال والحب ، إلى حد أن الحلاج قد برز في قصائد أولائك الشـعراء كأروع و أكمل مثال للصوفي المسلم ، الذي أذل في الحب الإلهي ، والذي قضـى عليه بالإعدام لا لشيء إلا لأنه ثمل بخمرة الحب . فصاح أثناء هذا الثمل قائلا "أنـا الحق ". والموقف يحتم علينا أن نشير إشارة عابرة إلى أولئك الذين جزموا بـأن الحلاج كان على حق و إنه كان من أتقى صوفية المسلمين وأنقاهم . وأنـة قتـل ظلما. وأن الأهواء قد لعبت في قضيته لونا بارزا . وأن من واجب كل مسلم نزيـه أن يقف فى صفه وأن يدافع عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلا . ومن أولئك الأعـلام الذين أعلنوا مناصرتهم للحلاج " حجة الإسلام الغزالي " . " وابن خفيـف " مـن الأشاعرة . "وابن عقيل " . و " الهروى " و " عبد القادر الجيلاني " من الحنابلـة. و"على الفارى" من الحنفية و " نصر الدين الطوسى " و " صدر الدين الشـيرازي " من المتفلسفين. و"نور الله التستري " من الإمامية . وغيرهم . ولعل السبب الـذي دفعهم إلى مناصرته في وسط تلك الأجواء المكفهرة ، و هـاتيك الفتـن الـهوجاء العاتية ، هو قصة حياته المؤثرة ، وإعجابهم بثباته وصبره ، وافتتانهم بتلك الصور الصادقة التي رسمها له نزهاء الكتاب و الشعراء من معاصريه ، و دراستهم الدقيقة وتأملهم الطويل المتعمق في منتجاته وأقواله وأفعاله التي رأوا من خلالها أنها متفقة تمام الاتفاق مع أسمى ما في نظرياتهم الشخصية مـن حقـائق تمثـل المبـادئ الإسلامية الصحيحة ، ظاهرها وخفيها أصدق تمثيل . و من العبارات التى أثـرت

عن أولئك الأعلام قول ابن خفيف " إذا لم يكن الحلاج مؤمنا بالله فليس في العـالم مؤمن واحد" .

ثم إن إتجاهات عدد من البحوث الحديثة ترى أن الحـلاج ضحيـة الأهـواء والأحقاد وضيق الأفق ، وأنه كان بريئا مـن الأغـراض السياسـية و الثـورات الاجتماعية ، والطعون الدينية ، براءة الذئب من دم ابن يعقـوب. و أن المصـدر الوحيد لكارثته هو أنه باح بالسر الرباني الذي احتفظ غيره من الصوفية بكتمانـه . فعاقبه الله على ذلك ، بأن سلط عليه من رماه بما هو منه براء هذه وجهة نظـر مناصريه .

كانت هذه النظرة العاجلة ضرورية لتحديد هذه المنزلة . خاصة التي تفرد بـها الحلاج بين الصوفية . والتي شغلت من صفحات التـاريخ مكانـا فسـيحا بـارزا ولنمر الآن مسرعين بتلك الحياة الهائجة بالعواصف والأحداث ، مشيرين من خلال تلك الأحداث إلى ما ساهم في تكوين مذهبه الذي حددته عظاته و تعاليمـه العامـة تحديدا انتهى إلى تهيئة الفرصة لخصومه بإتهامه بالكفر و الزندقة على نحـو مـا سنراه . غير أن حياة الحلاج منذ نشأته إلى تاريخ اعتقاله قد وصلت إلينا في صورة قصص متفرقة . إما عن طريق أصدقائه كابن خفيف و أحمد بن فاتك و على بـن عبد الحكيم القناد . و إما عن طريق خصومه كالديلمي والقاضي الطنوخي ، ومـن أولئك وهؤلاء . ومن ثم فإن تلك القصص المتباينة جاءت مفعمة بالتناقص .و لكـن أكثر هذه الروايات اعتدالا و تحديدا رواية ابنه أحمد و لذا أعتمد عليها البـاحثون رغم أنها تحمل في داخلها عناصر الحذر منها لأنها شهادة ابن لابيه .

أما الأعوام العشرة الأخيرة التي تلت اعتقاله فقد عرفت معرفة واضحة ، بسبب تفاصيل القضية ، وما ورد فيها من تسجيلات رسمية حينا ، و ملاحظات خاصـة مؤسسة على مشاهدات العيان أحيانا أخرى . و مهما يكن من الأمر فـهاك نبـذة خاطفة عن هذه الحياة .

حياة الحلاج :

ولد " أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج " في بيضا حوالي سنة ٢٤٤هـ . ولما شب تلقى العلم عن " سهل بن عبد الله التستري " الذي اشتهر في عصره بقوة مبادئه الأخلاقية . فكان لذلك أثر بعيد في تأسيس أخلاق تلميذه الناشئ .

وعندما نفي سهل تبعه الحلاج و لازمه في منفاه زمنا . و في سنة ٢٦٢هـ ارتحل إلى بغداد ، حيث تتلمذ على " عمرو بن عثمان المكي " زهاء ثمانية عشر شهرا ، ثم تزوج بابنة أبي يعقوب الأقطع سكرتير المكي . و لم يكن الأستاذ مسرورا من هذا الزواج ، لأنه كان يحس بأن لتلميذه أراء متعارضة مع آرائه و لم يبق الأمر عند هذا الحد بل لم يلبثا أن افترقا . و في سنة ٢٦٤هـ التقي بالجنيد وكان يعرفه من قبل فتتلمذ عليه ، و تأثر به تأثرا بالغا . كان أستاذه الأساسي ورائد وجدانه . وهو الذي أرشده إلى الخلوة ، ومرنه على حياة العزلة ، وأمره بارتداء ثياب الصوف البيض التي كانت طابع الصوفية في ذلك الحين . وفى هذه الحقبة اتصل بابن عطاء اتصالا متين الأواصر لم تنفصم عراه حتى الموت . وعلى أثر عودته من مكة في سنة ٢٨٢ قطع علاقته بالجنيد أولا ، ثم بأكثر أعلام صوفية بغداد بعد ذلك . وارتحل إلى"تستر" فأقام بها سنتين ، قاسى أثناءهما عناء شديدا لأن صوفية هذه المدينة كانوا يهاجمونه في عنف . ولعل هذا يجعل الباحثين يتعجبون من هذه القطيعة ، و يدهشون لذلك الهجوم ، لكن إذا ظهر السبب بطل العجب كما يقولون . وبيان هذه الأسباب : أن الحلاج قد اتخذ أساتذته من بين أعلام المحدثين،و مشاهير أهل السنة ، الذين كانت جهودهم مقصورة على إرجاع جميع الطقوس الإسلامية إلى ظواهر المأثورات النبوية، والذين كانوا يحذرون أشد الحذر من كل انفعال نفساني ، و يجحدون أتم الجحود قيمة ما يتخيل الإنسان أن قلبه يشعر به ، أو يتصور أن روحه تلمحه . و في هذا يقول المكي والجنيد : إن كل ما يحسب القلب أنه يتصل به من لذة أو بهجة أو نور أو جمال أوكائن أو شبح ليس لله فيه أدنى دخل و لا أقل علاقة .

هذا هو أساس الأزمة الباطنية التي ألمت بالحلاج . إذ إنه لم يكن يستطيع أن يحتمل هذا التصوف السلبي ، لأنه كان يعتقد أن ذلك الخمول المجدب ليس من روح الإسلام في شيء . من جهة . و كان يشعر بانفعالات داخلية و يسمع أحاديث باطنية يعتقد أنها آتية من الله من جهة أخرى . و أن هذه الأحاديث الإلهامية-حسب مايرى - كانت تقدم إليه حلولا لمعضلات فى العبادات . لذا فهو لا ينساها أويحرفها عن مواضعها .وكما كانت تلك السلبية سببا في نفور الحلاج من أساتذته كانت دعوى الإلهام منه سببا في نفور أساتذته منه . ومن ذلك ما يحدثنا به "القشيري" من أن سبب القطيعة بين المكي والحلاج أنه فاجأه وهو يسجل بعض تلك الإلهامات . فسأله عما يكتب فأجابه الحلاج بأنه يكتب كلاما يمكن أن يشبه القرآن .

أما منشأ قطيعته مع الجنيد: فإنه قد وجه إليه سؤالاً عن قيمة الإلهام الباطني بوصف أنه قاعدة من قواعد التقوى والعبادة ، فرفض الجنيد الرد على هذا السؤال ثم أطلق على الحلاج اسم المدعي ، أورجل المطامع . ومنذ ذلك الحين اشتعل لهيب الحرب بين الحلاج وأكثر أهل الحديث وأعلام الصوفية المتمسكين بالظاهر في بغداد ، فلما اشتدت هذه الحملة لم يسع الحلاج إلا أن ينزع ملابس الصوفية،وأن يلقي بها جانبا . وأن يختلط بأهل الدنيا (على حد تعبير بعض المؤرخين) لكي يرشدهم إلى مبادئه . وهكذا قذف بنفسه في وسط أفكار العصر وثقافته ، فدرس الفلسفة الإغريقية، ونبذ منطق الأشاعرة ، واعتنق منطق أرسطو ، الذى كان يبدو له أكثر مرونة ، وارتبط بالرازى الطبيب ، وأبى سعيد الجنابى المصلح الاجتماعى وبعض ، ذوي السلطان كالأمير الحسين بن علي الروضى ، ثم ارتحل على أثر ذلك إلى خراسان والأهواز، وظل يتنقل في تلك الأصقاع وهو يزاول الحياة التنسكية غير مقيد بشعارها ولا بمظهرها . وكان إذ ذاك متصلا بالجماهير التي تحبه وتلتف حوله فيعظها بمداومة الندم ومزاولة الزهد . ويتحدث إليها عن الضمائر والوجدانات . وجعل يكشف لمستمعيه ما يدور بخواطرهم وقلوبهم . ولذا دعوه "بحلاج الأسرار " . وقد ظل على هذه الحال خمسة أعوام كاملة ، ارتحل بعدها إلى مكة فأدى شعيرة الحج للمرة الثانية ، وكان ذلك في سنة ٢٩١هـ ثم عاد

إلى بغداد فألفاها على ما كانت عليه من التجهم له ، والحنق عليــه،فــارتحل إلــى خراسان ، وهنا خطرت له فكرة اقتنع بها اقتناعا قويا ، وهـــي أن يرتحــل إلــى الأصقاع ليهدي أهلها إلى الاسلام . فأتجه إلى الهند ، ثم إلى التركستان ، وتغلغــل فيها إلى حدود الصين . وفى هذه المدن النائية أحبه الكثيرون ففـــى الـــهند كـــانوا يدعونه بالشفيع وفى الصين والتركستان كانوا يسمونه بالمنعم كما كان فريق مــــن أشياعه في بغداد يطلق عليه اسم المنجب ، وفريق من أنصاره في البصــرة يلقبــه بالمبهر .

ولا يفوتنا أن نسجل هنا أن هذه الرحلة التي قام بها الحلاج إلى البلاد الوثنيــــة كانت طليعة الحملات الروحية التي وجهها صوفية الإسلام إلى الوثنين ، وكان لـــها من النتائج الطيبة فى نشر الإسلام في تلك الأصقاع ما يحسب لصالحه . كما شـــهد بذلك عدد من المستشرقين الأوربيين . والسر في هذا النجـــاح البـــاهر أن أولئـــك الصوفية كانوا قدوة مثالية في الفضيلة والتقوى والتضحية والفدائية .

عاد الحلاج بعد ذلك إلى مكة . فأدى فريضة الحج للمرة الثالثة . وأقـــام بـــها سنتين . ثم ألقى عصا الترحال أخيرا في بغداد في سنة ٢٩٦هـــ . وهنا غير تيـــار حياته العملية ، فبدأ سلسلة من العظات العامة ، أخذ رنينها يجلجل في أنحاء بغداد . وجعل يوجهها إلى الكافة ويعرض فيها مذهبه النهائي . ومما هو جدير بالذكر هنا ، بل قد يكون هو الأول من نوعه في البلاد الإسلامية ، هو أنه يؤيد مذهبه بالخوارق العامة التى كانت حتى عهده مقصورة على الرسل عليهم الصلاة والسلام.

ومهما يكن من الأمر . فإن هذا المذهب الذي أعلنه الحــــلاج ، وأيـــده بتلـــك الخوارق تركز أخيرا فيما كان يبدو له أنه هو الغاية الحقيقيـــة للصوفـــي . وهـــو الاتصال بين الله وروح الولي . ومن ثم لم تكن الزهادة الجنيدية السلبية في رأيـــه سوى إعداد أولي لهذه الغاية المثلى التي عندما يصل إليها الصوفي يظفر بحظ وافر من الفيض الإلهي .

ومما تتحتم الإشارة إليه هنا: هو أن من الروايات ما يشير إلى أن الحلاج كـــان يجزم دائما بأن الإله هو الموجود الأسمى المفارق وإذا كان هذا هو معتقـــده - والله

أعلم بالنوايا - فإن هذا من شأنه أن يبرئه من تهمة وحدة الوجود التى رمـــاه بـــها خصومه عندما فسروا عبارته (أنا الحق) على غير هذا المعتقد ولعل الحلاج كـــان يريد بهذا القول أن هناك اتصالا بين الله تعالى وبين أرواح أوليائه - لاعن طريـق الحلول التحيزى – بل بواسطة فيضه التشريفي ، الذي يرفع أرواح الأتقيـــاء إلـــى المراتب القدسية . وعنده أن أفعال التقي في حالة هذا الاتصال تبقى مسيرة بإرادتـه الشخصية منظمة مترابطة بفعل عقله الخاص . ومعنى هذا أن ذلـــك الاتصـــال لا يهدف إلي هدم شخصية الصوفي . بل هو يرمي إلي ســـموها وكمالـــها وفوزهـــا بالمساهمة في الفيض الإلهي .

وفيما يتعلق بإيضاح هذا الاتصال الإلهى يقول منـــــاصروه: لقــد كـــان الاتصال الإلهي الذي يقع للحلاج أثناء انجذاباته وغيبوباته يتمثل في مناجاة أليفـــــه مناجاة مستمرة بين روحه ومحادثها الأسمى ، الذي تشعر بوجوده في أعماقها دون كيف ولا انحصار ، ولا تحيز ولا حلول ، وهي تستعمل في تلك المناجاة كلمتـــــي "أنت وأنا " وتتقدم إلي باريها بذاتها ، وبما تحتويه من آلآمها وآمالها ، ورغبتـــــها وتأسفاتها وندمها وتوبتها .

حسبنا الآن هذه الوقفة الخاطفة التي وقفناها عند مذهب الحلاج .

نهاية الحلاج

غير أن هذه العظات العامة التي كان الحلاج يعلن فيـــها ابتهاجـــه بظفـــره بالاتصال الإلهي ، لم تلبث أن أصطدمت بسيل من المعارضة في أوساط الفقـــــهاء والساسة والصوفية . حيث أخذ عليه هؤلاء الأخيرون إفشاء الكرامات ، والتصريح بالحب المتبادل بين الله والبشر . ونسب إليه الأولون التزندق بادعـــــاء الربوبيـــة . وعلى أثر ذلك جعل أعداؤه يسعون سعيا حثيثا حتى ظفروا بفتوى من الفقيه " ابـــن داؤد الظاهري " تنص على أن كل تصريحاته باطلة ، وأن الشـــرع يبيـــح قتلـــه . وعندما تم لهم ما أرادوا تقرر اعتقاله ، وقد حاول الفرار ، ولكن رجال الشـــــرطة عثروا عليه في مدينة "سوس" فاعتقلوه وأرسلوه إلى بغداد في سنة ٣٠٠ هـــ .

غير أن الوزير " ابن عيسى " الذي كان مؤمنا معتدلا واسع الأفق ، لم يجد ضده سببا محددا يثبت زندقته ، ويقتضى قتله ، فاكتفى بعقابه وابقائه في السجن فظل رهينه ثمانية أعوام وسبعة شهور ، وكان هذا السجن أول الأمر قاسيا على نفسه ، ولكن هذه القسوة لم تلبث أن تلاشت أمام صبره وتقواه ، فاعتاد هذه الحياة الجديدة . وقد دفعت هذه الحياة القلوب إلى الألتفاف حوله ، رغم ذلك الحجاب المنيع الذي أقامه السجن بينه وبينهم .

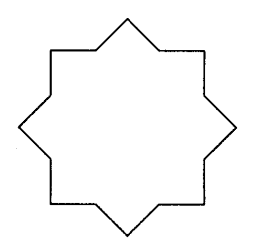
وكان من بين مقدريه وعارفي فضله "نصر القشوري" وهو إذ ذاك أحد كبار رجال القصر ، فكان يلقبه بالشيخ الصالح ، وقد شاءت الأقدار في ذلك الحين أن يمرض الخليفة ووالدته ، وأن يكون برؤهما على يد الحلاج ، لا عن طريق الأدوية والعقاقير، بل بتلاوة آيات القرآن الكريم عليهما ، فكان ذلك سببا في عودة نجمه إلى السطوع ، فألهب هذا الامتياز قلوب خصومه بالحقد عليه والحسد وكان ذلك في سنة ٣٠٨ هـ .

ومن سؤ حظه أن " حامدا " الوزير كان يمقت نصر القشوري أحد كبار رجال القصر و الذى كان يحب الحلاج مقتا شديدا ، وكان خصوم الحلاج يعرفون ذلك،فأشعلوا لهيب القضية من جديد ، ووكلوا أمرها الى هذا الوزير ، الذي لا يعرف في سبيل إرضاء شهواته السياسية خلقا ولا دينا ، فصمم على قتل الحلاج ، وسلك لذلك كل الوسائل الممكنة ، فحاول أن يظفر من القضاة بفتوى تنص على ادعائه الربوبية ، فلم يفلح ، فلجأ إلى حيلة تزييف مستندات تشهد بأن الحلاج قال بصحة تأدية فريضة الحج في المنزل إذا تعذرت تأديتها في الحرم ، ثم عرض هذه التهمة على القاضي " أبي جعفر بن بهلول "، فأبى أن يفتي بقتله استنادا إلى أن ناقل الرأي الباطل إذا لم يكن يؤمن به فلا شيّ عليه ، لأن ناقل الكفر ليس بكافر ، وأن صاحب هذا الرأى لا يدان إلا إذا سئل فأصر على ما نسب إليه،واستتيب فلم يتب ولكن الوزير المغرض سرعان ما وجد قاضيا أخر وهو "أبو عمر بن يوسف " الذي لم يتردد في أن يفتي بأن تصريح الحلاج هذا زندقة تستوجب الإعدام ، وأن الحاكم ليس مكلفا باستتابة الزنديق . وقد انتهز الوزير غيبة ذلك القاضي القوي

النزيه ، فعرض هذه الفتوى على المحكمة فأقرتها وأصدرت الحكم بالإعدام علـــى الحلاج . ولم تنجح جهود نصر القشوري إلا في تأخير الحكم بضعة أيام . وأخـيرا تم ذلك في ٢٤ من ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ .

أما قصص تعذيبه الشهيرة والمعروفــة ، ووســائل التنكيـل بـه فـهي كثيرة،ومنها روايات ابنه أحمد وابن خفيف وأبن زنجي كاتب المحكمـــة ،وشـقيق أحمد بن فاتك وأبي بكر الشبلي ومن إليهم .

على أنه ينبغي لنا قبل مغادرة الموقف أن نعلن أن قصص حيـــاة الحـلاج واتهامه وقضيته وتعذيبه وموته لم تكشف لنا إلا جانبا محدودا من جوانبه المتشـعبة التي يعتبر من أهمها التغلغل إلى أعماق مذهبه ، والتعمق في أسسه الرئيسية علـى ضوء عبارات " أنا الحق " و "ما في الجبة إلا الله " وما شاكل ذلك " وبالتالي فقـد وضحت المنزلة التي شغلها الحلاج في الأفق الإسلامي ، فيما يرى من كـان فـى جانبه من الفقهاء ، وأهل الحديث ، وأعلام التصوف الإسلامى ، وعدد غير قليـل من الباحثين المحدثين الذين صرح أحدهم بأن تاريخ الحلاج لم يبدأ إلا بعد وفاته .



الفصل الثالث

جهود الصوفية فى الدعوة إلى الإسلام

جهود الصوفية فى الدعوة إلى الإسلام

تجدر الإشارة هنا إلى أن الصوفية لها جانبان :-

جانب الخير : وهو الاتجاه إلى الله تعالى ، والاستجابة له ، وأن يكون قلب المؤمن عامرا بالإيمان ، ذاكرا الله تعالى دائما ، مشرقا بنوره ، يطلب من الدنيا ما يقوى به على عبادة الله تعالى وطلب ما عنده فى الآخرة ، فلا ينصرفون عن الدنيا ولكن يطلبونها على أن خيرها مطية للآخرة .

والجانب الثانى : وهو ظاهر فى بعض المتصوفة ، وهو الانقطاع عن الدنيا وذلك وجه لا يريده الإسلام ، ويظهر ذلك فى الانصراف إلى الذكر الذى يكون معه حركات.

ومهما يكن نوع التصوف وغايته ونهايته ، فإنه قد وجدت جماعات صوفية يرأس كل جماعة شيخ من شيوخ العلم والتصوف ــ على ما سيأتى بيانه بالتفصيل فى مكانه من هذا الكتاب ــ ولذا تعددت الطرق الصوفية وكل واحدة تتبع شيخا جديرا بالاقتداء وله فى الإسلام والدعوة إليه فضل وذكر ، فالشيخ **عبد القادر الجيلانى** له علم غزير وإرشاد وتوجيه وحكمة ، **وإبراهيم الدسوقى**: له علم مدون وتوجيهات سديدة فى التقوى والزهادة ، **وأحمد البدوى**: له بعض جهاد فى الحروب الصليبية وله توجيهات محددة ، **والسيد أحمد الرفاعى** من أهل العلم والتوجيه والإرشاد .

وأحمد التيجانى: له فضل كبير ، **والسيد محمد بن على السنوسى**: له فضل علمى وعملى وتوجيهى فى الإسلام ، ودعوته إلى الإسلام هو والتيجانى نشرت الإسلام فى غرب أفريقيا ووسطها وجنوبها ، مع ما كان للجيلانية من أثر ، وإذا كان إسلام شرق أفريقيا على يد الحضارمة ، والتجار ، فإن إسلام وسط أفريقيا وغربها ، للجيلانية وللتيجانية والسنوسية فضل عظيم فى نشره ، ولنذكر ذلك بفضل من القول ونشير إليه فى إيجاز فى الصفحات التالية .

الشعبذة والتصوف

لا نريد بالتصوف التصوف الذى شاع فى عصر المماليك فى مصر والشام والذى كان أهم مظاهره الشعبذة ، والصياح ، والتمايل بما يسمونه الذكر فى المجالس،والخروج بالمواكب والأعلام فى الطرق ، واللعب بالثعابين ، وابتلاع النيران، وغير ذلك مما كانت تظهر به فرق مختلفة ، وطوائف تسير فى الطرقات وتضع النار على أجسامها لتنطفئ ، زاعمين أن النار لم تحرقهم ، وقد طلوا أجسامهم بما يمنع حرقها ، وقد ادعوا أنهم ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعى ولنترك القلم لابن تيمية يصف حالهم – وإن كنا لا نوافق على نظرته إلى التصوف عامة ، فقد قال رضى الله تبارك وتعالى عنه لهم عندما أرادوا أن يصنعوا أمامه وفى حضرة نائب السلطان ما يصنعون أمام التتار ، وقد كانوا جاثمين فى ربوع الشام ، وهم يقاومونهم قال : من أراد أن يدخل فى النار فليدخل أولا الحمام وليغسل جسده غسلا جيدا،ويدلكه بالخل والأشنان ، ثم يدخل بعد ذلك إلى النار إن كان صادقا ، فقال شيخهم: نحن إنما تتفق أحوالنا عند التتار . فانكشفت بذلك حالهم. وهو ممالائتهم التتار . فاشتد النكير عليهم لفعالهم وممالأتهم للتتار أعداء الوطن الشامى ، بل أعداء الأوطان العربية والإسلامية قاطبة ، إذ لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام ،وإن أمثال هؤلاء المشعوذين لا تزال تطلع على ناس منهم ينتسبون إلى السيد أحمد الرفاعى و هو منهم براء.

ولكننا إذا قلنا إن الصوفية لهم أثر فى الدعوة إلى الإسلام . لا نقصد هؤلاء ولا أشباههم، وإنما نقصد الذين اتخذوا العبادة شعارا للتصوف، ولم يتخذوها للشعبذة واستدرار أموال الناس ، أو العبث بالعوام وحشو الأمة .

ونحن إذا قلنا: إن التصوف حمل الدعوة الإسلامية ، أو كان منهم من حملوها لا نقصد العامة ولا الذين اتخذوها أشكالا ومظاهر و مواكب تخترق الطرقات . كما أشرنا إلى ذلك . إنما نقصد الصفوة المختارة منهم ، التى صفت نفوسها وربت مريديها وتلاميذها على الخير والعمل ،كالشيخ عبد القادر الجيلانى ،وأبى الحسن الشاذلى والمرسى أبى العباس ،وابن عطاء الله السكندرى ،والشيخ أحمد

التيجانى،والسيد محمد بن على السنوسى . فألئك كان لهم مقام فى الدعـوة إلـى الإسلام .

وإننا إذا تكلمنا فيمن يدعون إلى الإسلام من الصوفية لا نقصد الذين قاموا بالشعبذة والتعرض للأفاعى . كما لا نتصور أن منهم الذين يقولون بتساوى الحسنة و السيئة ولا الذين يقولون: إن المطلوب الحقيقية لا الشريعة ،ولكن نتكلم عن أئمة الصوفية الذين تصدوا للوعظ العام ، والذين لم يترهبنوا ، فهؤلاء هم الذين دعـوا إلى الإسلام و انتشر فى نواح كثيرة من نواحى البلاد الإسلامية ببعضهم .

الدعاية الصوفية

كانت الدعاية الصوفية تقوم على أمرين :-

أحدهما : من القدوة و الاختلاط ،والأخلاق الإسلامية والتسامح والرفـق فـى المعاملة والمثل الطيبة الواضحة فى المعاملة الحسنة .

وذلك أن أئمة الصوفية كالقطب عبد القادر الجيلانى، وأبى الحسـن الشـاذلى والمرسى أبى العباس، وابن عطاء الله السكندرى، كانوا علـى أخـلاق إسـلامية طيبة،وكانوا على سماحة تدنى البعيد وتثبت القريب .

وبهذه الأخلاق التى سرت إلى بعض مريديهم و أتباعهم كانوا يجذبـون إلـى الإسلام طوائف من غير المسلمين ، الذين يختلطون بهم . فإن المعاملـة الحسـنة والاختلاط الذى يجذب النفوس ، وما إلى ذلك مما يصدر عن أصحـاب العقيـدة العالية من فضائل تسرى إلى ما دونها كما يسرى الماء العذب من المكان المرتفـع إلى المكان المنحدر.

وقد كان هؤلاء الآحاد من المتصوفة ، الذين لا يشعبذون بل يتعبدون،يختلطون بأهل أفريقيا الوثنيين ، والمجوس والوثنيين فى آسيا ، فيؤثرون بمعاملتهم ، وبسعة صدورهم وعقولهم بأكثر مما يؤثر القول ، وقد كانت تقترن بهذه الأخلاق دعـوات آحادية أحيانا.

الثانى من الأمور: التى كانت تقوم بها الدعاية الصوفية : مجالس الوعظ التـــى كان يعقدها الأئمـــة مـــن الأقطـــاب . فقـــد كـــانت مجـــالس عامـــة يحضرهـــا المسلمون،ويحضر فيها غير مسلمين . فيتبعون الشيخ فى مواعظه ، ثم يعلو الاتباع حتى يتبعوه فى عقيدة الوحدانية . وكان من هؤلاء من له ثقافة إسلامية واسعة وعلم بالإسلام أصوله وفروعه " كعبد القادر الجيلانى " الذى عاش فى القـــرن الخـــامس والسادس الهجرى من ٤٧٠ إلى ٥٦١ فقد كان عالما بالأصول والفروع و الحديـث رواية ودراية . وقد جلس للوعظ أربعين سنة ، وقد ابتدأ واعظا من سنة ٥٢١ هـــ ومفتيا من سنة ٥٣٦ هـــ إلى أن قبضه الله تعالى،وكأن منصب الإفتاء كان نظـــره أعلى من منصب الوعظ . لأنه ما تصدى للإفتاء إلا بعد الستين.

وكانت مجالس موعظته عامة لا يمنع فيها من الحضور أحد ، فكـــان يدخـــل اليهودى والنصرانى والمجوسى والوثنى، وقيل إن مجلسه كان يحضره نحو أربعـة آلاف . وما كان المجلس ينفض إلا على إسلام كثيرين . ومنهم من كان يحضر إليه طالبا للهداية فيسلم على يديه.

لقد جاء فى كتاب [*قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر*] أنه أتاه فى مرة ثلاثة عشر رجلا من النصارى ، وأسلموا على يديه فى مجلس وعظه ، وقالوا نحن مـــن نصارى العرب ، وأردنا الإسلام وترددنا فيمن نقصده لنسلم على يديه فـــهتف بنـــا هاتف نسمع كلامه ولا نرى شخصه:

أيها الركب ذو الفلاح ائتوا بغداد وأسلموا على يد الشيخ عبد القادر،فإنه يوضـــع فى قلوبكم ببركته ما لم يوضع فيها عند غيره من سائر الناس.

ومع ما كان يفد إليه الناس بحكم ما نال من سمعة ببركته وإخلاصـــه ، كـــانت مجالسه التى يحضرها نحو أربعة آلاف ، يحضرها بعض المجـــوس والنصـــارى وغيرهم من المسلمين . وهو يتجه فى دروسه إلى ثلاثة اتجاهات: أولها وأغزرهـــا يتعلق بالقلب وتطهيره من الأرجاس ، وتربية المحبة فيه ، وبعضها يتجه إلى بيـــان العقيدة الإسلامية بيانا واضحا بينا لا اعوجاج فيه ولا تعقد ، يعتمد علـــى القـــرآن الكريم والحديث الشريف فى بيان العقائد . ولا يتعـــرض لعلـــم الكـــلام إلا عنـــد

الاضطرار إلى الأدلة المنطقية وفي كثير منها يتجه إلى بيان الأحكام الفقهية ، مبينا أسرار هذه الأحكام، والحكمة فى شرعيتها ، متجها فى بيانها إلى تربية الأخلاق الربانية لأنه كان ربانيا.

وبهذا البيان الحكيم، وبما حف به من بركات ، كان ربانيا فى أخلاقه وبيانه وسلوكه ، فكان النصارى والمجوس الذين يحضرون درسه ينجذبون إلى الحقائق الإسلامية انجذابا ، وبفضل إخلاصه واستقامة نفسه وعقله وحسن أدائه ، وما يحف به من بركاته يسلم الناس من غير دعوة إلى الإسلام ، بل إنه بهذا الأسلوب النورانى كان يفتح القلوب.

وهكذا كان القطب عبد القادر الجيلانى مربيا لنفوس مريديه ، وداعيا إلى الحق وإلى الهداية ، ومن هذه الناحية دخل فى الإسلام على يديه الكثيرون لطهارته وإخلاصه ، وحسن دعوته إلى النور من غير تكلف .

الصوفية والدعوة إلى الإسلام فى أفريقيا

التيجانية

ذكرنا ما كان من أثر فى تصوف الصوفية من أقطابها من أمثال القطب أحمد الرفاعى ، والقطب عبد القادر الجيلانى ، واخترنا عبد القادر مثلا طيبا للدعوة الإسلامية . وما كان لنا أن نتتبع الأقطاب قطبا قطبا ، ولكن اخترنا من هذه الحقبة مثلا صالحا لمن لم نذكرهم على أنه واحد منهم ، والآن نقفز قفزة مكانية وتاريخية لنجتاز إلى أفريقيا فى ليبيا وتونس والجزائر ، والمغرب الأقصى . ثم نجتاز البحر إلى الأندلس ، وذلك بالدعاة الذين حملوا القرآن داعين إلى الإسلام ، ومزيلين كل الحواجز التى تحول دون الدعوة . حتى أزهر وكان فى الأندلس حاملا للحضارة التى لم يعرفها أهلها من قبل .

ولكن الإسلام لم يتغلغل فى أول الأمر فى وسط أفريقيا السوداء ، لأنها كانت مجاهل ، وكانت الجهالة تسيطر عليها ، ولم يتجه القائمون إليها ابتداء ، بل اتجهوا إلى النوبة ثم السودان الذى يسير فيه النيل ، وقد عمر أهل الشمال فيه بالعرب الذين آووا إليه من مظالم من اغتصبوا الأمور من الخلافة العباسية . ولذا تجد فى شمال السودان كثيرين من العباسيين الذين هربوا من الاضطهاد عند الغزو التترى وإن الحضارمة كان لهم الأثر الواضح فى دخول الإسلام فى شرق السودان،وترى آثارهم واضحة فى ذلك ، وكثيرون منهم يقيمون مع إخوانهم الإفريقيين.أما فى غرب أفريقيا ووسطها فكانت الدعوة إلى الإسلام تجىء من شمال أفريقيا قوية واضحة نيرة. وكان للصوفية فضل كبير فى هذا ، فإن أتباع أبى الحسن الشاذلى والمرسى أبى العباس ، ونشاط بن عطاء الله السكندرى كان لهم دخل بالقدوة والمسلك فى أفريقيا ، والفضل الواضح الأثر كان للتيجانية والسنوسية فى القرون الأخيرة ، فقد كانت التيجانية لها عناية شديدة بالدعوة إلى الإسلام فى غرب أفريقيا ووسطها ، وكان السيد أحمد التيجانى (سنة ١١٥٠- ١٢٣٠م) ومن جاء بعده لا يقتصرون فى تعاليمهم على بث التصوف والزهادة الروحية ، بل يجتازون إلى

أفريقيا السوداء يبثون فيها الإسلام ، ويربونهم وكانوا يعلمـون الزنـوج الإسـلام وينشئون لهم معاهد تدرسه ، ويأخذون بعض الأفريقيين إلـى المغـرب الأقصـى يعلمونهم مبادئ الإسلام ، ثم يرجعونهم إلى أقوامهم دعاة ، ومدرسين ، في المعاهد التي أنشئوها ، وقد استمروا على ذلك حتى انتشر الإسـلام فـي غـرب أفريقيـا ووسطها . حتى أنك ترى الكثرة الكاثرة في ساحل الذهب وساحل العـاج (سـابقا) وغانا وغينيا والسنغال والكنغو ونيجيريا من المسلمين الأقوياء فـي تدينـهم ، وإن كان فيهم جهل يحتاجون معه إلى من يعرفهم بالأحكام الإسلامية بإجمالها وتفصيلها وفروعها وكلياتها.

ولما استعمرت أوروبا أفريقيا ، وأرسلت لها المبشرين فرادى وجماعات ، لـم تستطع تنصيرهم ، ولم يستطيعوا أن يهضموا بعقلهم الفطري المستقيم المعاني التي يدعوا إليها النصارى في هذا الزمان .فنصرانية اليوم غير مسيحية المسيح عليـه السلام ، ولكنهم -أي الأوروبيين- جعلوا حكامهم من غير المسلمين ، أولئك الحكام كانوا يعملون بجدع أنوفهم ليبقوا على جهالتهم ، ولكن النور دخـل إلـى قلوبـهم فاتجهوا إلى العمل على تولي السلطان .واتجه المتحكمون إلى إبعادهم عن العلـم . ولكنهم لا يقدرون على الوقوف ضد التيار ، ولذا أخذوا يتملقون ويدهنون ليبقوا في حكمهم . والحبشة كثرتها الساحقة مسلمة بالدعوة الحضرميـة ، ولكـن حكامـهم يحولون بينهم وبين العلم ، ولا يمكنون منه إلا من هو نصرانـي ليميـت الجـهل المسلمين والإسلام دين العلم.

ومهما يكن فإن المتصوفة من التيجانية لهم دور كبير في إسلام غرب أفريقيـا مع السنوسية والجيلانية.

السنوسية

لن نتكلم في الدولة التي نشأت في أعقاب الحرب العالمية الثانية بليبيا ، والـذي رأسها ملك من أحفاد السيد السنوسي ، الذي كان قائما بالدعوة إلى الإسلام نقيا مـن الشوائب ، وألف في ذلك الكتب يدعو فيها إلى تنقية الإسلام مما خالطه من أوشـاب الزمان ، وتوالي الأزمنة ، إنما نقصد تلك النزعة الفكرية القوية التي نشـأت فـي

الزوايا التى أنشأها " محمد بن على السنوسى " وابتدأ بها فى بنى قبيس بمكة ، ثـم مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم أنشأها فى ليبيا والجزائـر والصحـراء ، حتى وصل إلى بحيرة تشاد . فى وسط أفريقيا . والتى كانت تقوم بـالدعوة إلـى الإسلام تدعو إليه نقيا بين المسلمين كما كانت تقوم بتربية روح القوة والأخذ بمـا هو من أسبابها فى العصر الحاضر ، وتدعو الوثنيين وبقايا العناصر القديمة إلـى الإسلام فى وسط أفريقيا وسواحلها . ودخل استجابة لهذه الدعوة القوية المسـتمرة عدد لا يحصى إلا بألوف الألوف فى نيجيريا وغانا وغينيا والسـنغال والكونغـو وتشاد وأوغندا وروديسيا ، وغيرها من وسط أفريقيا ، وقد ضايق ذلك المبشـرين وحاولوا أن يتباروا معهم فباؤوا بالخسران . لسلامة ما تدعو إليه السنوسية، وتعقيد ما يدعوا إليه دعاة النصرانية .

وإن الزوايا التى أشرنا إليها . وأنشئت فى الجزائر وتونس وبرقة . وتغلغلـت فى الأراضى العربية حتى وصلت إلى الأراضى الخضراء حول وادى النيل وغيره من أنهار أفريقيا ، كانت أولى ثمراتها خصوصا بين الوثنيين ذيوع الدين الإسلامى فى قلب القارة المظلمة ، ونجحت تلك الدعوة السنوسية فى هذه الجهات لدرجـة أن صارت جمعيات المبشرين الأوروبية المنبثة فى القارة الأفريقية كلها تجـد فـى الدعوة إلى الإسلام من السنوسيين خصما عنيدا لا قبل لها بالتغلب عليـه . مـهما أوتيت من مال وقوة دولية . (أنظر كتاب السنوسية دين ودولة- للدكتور محمـود فؤاد شكرى)

ولقد كان كبير السنوسيين يرسل الرسل إلى الزوايا ، وهؤلاء كانوا ينتقلون إلى القوافل والسائرين فى الصحراء يدعونهم إلى الله ، آمرين بالمعروف ، ناهين عـن المنكر ، هادين الوثنيين حتى تكونت من عمل هؤلاء وعمل مـن سـبقوهم مـن التيجانية الذين ينتمون إلى الطريق الشاذلى مثلهم ، دولة إسلامية ، الكثرة الكـاثرة فيها مسلمون ، وقد تململ المتعصبون من الأوروبيين من هؤلاء السنوسيين فحاربوا دعوتهم ، ودسوا بينهم وبين الدولة العثمانية ، التى كانت تلك البلاد تابعـة ، لـها أوخاضعة لنفوذها . ولكنهم كانوا ماضيين فى بث الإسلام فى نفوس الأفريقيين،وإن

ضج منهم المبشرون وضاقوا ذرعا بهم ، إذ وجدت الرسالات النصرانية التبشيرية فى السنوسيين خصوما أقوياء أشداء فى عملهم لا يملون . وبالتالى فهم لا يقوون على وقف حركاتهم وقد عطلوا أعمالهم ، وأفسدوا عليهم دعايتهم ، وإن التبشير كما هو معلوم لمؤرخى العصور الحديثة نذير الاستعمار يتقدمه ويقويه .

ولذلك شعرت الدولة التى باشرت استعمار أفريقيا ، كفرنسا وإيطاليا بخطر الدعوة الإسلامية ونشرها على مطامعهم المتعصبة على الإسلام ، وإن ظهرت بغير ما تخفى ولذلك حاربت السنوسية أو حاربت فيها الدعوة إلى الإسلام بكل الطرق المحللة فى قانون الأخلاق ، والمحرمة على سواء .

وقد اتجهت الدعوة السنوسية إلى جنوب السودان . وكان آخر السنوسيين فى قوة دعوته وإخلاصه " السيد أحمد الشريف السنوسى " ابن عم من صار ملكا من بعد ،كان قد رأى جنوب السودان هو الذى لم تقم دعوته فيه ، فأرسل الرسل إليه من السنوسيين يدعون إلى الإسلام . حتى ضاق بهم ذرعا المندوب الإنجليزى إذ ذاك وهو" اللورد كتشنر " ، فأرسل إلى السيد السنوسى يتضرع إليه أن يخفف دعوته .

ولولا حرب الطليان مع السنوسية فى عام ١٩١١ وعام ١٩١٢ لحول الجنوب السودانى إلى مسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وما دمنا قد استعرضنا فى الصفحات الماضية عددا من أعلام الصوفية ،وأشرنا إلى بعض مشاهيرهم إشارة عاجلة ــ بدءا من القرن الأول الهجرى إلى أن وصلنا إلى الحلاج ــ ثم استعرضنا هؤلاء الأعلام من الصوفية الذين كان لهم فضل كبير فى نشر الإسلام فى مواطن كثيرة من العالم مثل أفريقيا وغيرها ، وذلك كنماذج لهؤلاء الصوفية فإن علينا قبل أن ننتقل إلى الكلام عن " رابعة العدوية " ــ أن نشير إلى ما تمخض عنه علم الصوفية وعالمهم من خصائص أخلاقية ونفسية من خلال ما كتبه أعلام الصوفية أنفسهم .

الفصل الرابع

الخصائص الأخلاقية والنفسية للصوفية

الخصائص الأخلاقية للرياضات والأذواق الصوفية .

الخصائص الأخلاقية للرياضات والأذواق الصوفية

١- التصوف علم وعمل وعرفان

للتصوف الإسلامي في نشأته وتطوره أطوار مختلفة تعاقبت عليه . وتعريفات عدة تعددت بتعدد الصوفية . وتفاوتت بتفاوت الطرق التي سلكوها ، والمذاهب التي اصطنعها كل من الصوفية في رياضة نفسه . وتباينت بتباين المسالك التى سلكوها والمذاهب التي ذهبوا إليها في فهم معنى التصوف ، وتحديد موضوعه ، وبيان غايته . ولكن هذه التعريفات على كثرتها وتعدد أصحابها . وتلك الأطوار التي تعاقبت عليها، واختلاف العوامل التي عملت عملها في كل طور منها ، إذا أحصيت واستقصيت ، وفهمت مبانيها ومراميها فهما يقوم على الموازنة والمقارنة و الملائمة . يمكن أن نستخلص منها معنى جامعا ، هو أشمل ما يكون لمعاني التصوف المختلفة . وأدل ما يكون على حقيقته فى أطواره المتعاقبة ، لا سيما ما كان من هذه الأطوار متعلقا بتكوين التصوف تكوينا علميا ، يجعل منه علما خاصا ببواطن القلوب، وما يجري على هذه البواطن من أحكام . ومقابلا لطائفة من العلوم الشرعية الإسلامية التي تعني بظاهر الأحكام ، سواء ما يجري من هذه الأحكام على الجوارح ، كما هو الشأن في علم الفقه . أو ما يجري منها على العقائد كما هو الشأن في علم الكلام : فالتصوف الإسلامي باعتباره علما لبواطن القلوب يمكن أن يعرف بأنه : رياضة القلب ومجاهدة النفس بحيث تحصل الأذواق وتقع المشاهدات. وفي هذه المشاهدات وتلك الأذواق تنكشف الحقائق وتعرف الدقائق،ويعرف الإنسان ربه معرفة يقينية لايأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها ويستشعر من معرفته هذه سعادة لا تعادلها سعادة أخرى مهما كانت حسية أوعقلية. والتصوف بهذا المعنى الجامع . ليس علما فحسب. ولا عملا فحسب . و إنما هو علم وعمل معا .

فهو علم بما ينبغي أن يعرف الإنسان مــن أمــر نفســه وطبيعتــها وآفاتــها وخواطرها، وما تصفو به وتنقى وتسمو به وترقى من ألوان الرياضة والمجــاهدة ،وسائل التصفية والتنقية . ثم عمل بما علمه الانسان من هذا كله ، وتحقيــق لــه وتحقق به فى حياته الخاصة والعامة . سواء فيما بينه وبين نفسه . أو فيمــا بينــه وبين أشباهه .أو فيما بينه وبين ربه . وذلك كله على وجــه تتحقــق فيــه المثــل الأخلاقية العليا ، التي ينتفي معها الشر ، ويتحقق فيها الخير .

على أن هذا العمل بما علمه الإنسان من شأنه أن يوصل صاحبه إلى علم آخــر أرقى وأسمى من العلم الأول . وهذا العلم الآخر لايحصل عن طريق الدراسة . ولا يتلقي على يد معلم . وإنما هو نور يقذفه الله في قلب العبد ، وقد رق حسه، وصفت نفسه ، وانجابت الحجة عن عين قلبه ، فضل ما أخضع له نفسه من مجاهدة ومــا أخذ به قلبه من رياضة . وهذا العلم الذي يأتي بعد العمل هو الذي بطلــق عليــه "الصوفية " (المعرفة) أو العرفان الذي تحصل فيه المشاهدة والعيان ويتميز بأنــه وهبي من لدن الله تعالى أما العلم السابق على العمل: فإن هذا كسبي يأتي من جانب الإنسان ، ويرجع إلى ما يبذله في سبيل تحصيله من جهد . ويقــوم علــى الدليــل والبرهان . بقدر ما يستند العرفان على المشاهدة والعيان .

من هنا يتبين وجه العلاقة بين العلوم الكسبية الإنسانية ، وبين العلوم الوهبيــة الإلهية . كما يتبين أن العلوم الكسبية إنما هي من العلوم الوهبية الإلهيــة بمثابــة المدخل لها أو التمهيد الذي يهيئ نفس السالك وقلبه وعقله ، بحيث يصبح أهــلا لأن تشرق في قلبه أنوار العرفان الإلهي أو المعرفة اللدنية .

وقد أبان (أبو بكر محمد بن اسحاق البخاري الكلاباذى) المتوفي ســنة ٣٨٠ هــ - سنة ٩٩٠ م في معرض حديثه عن علوم الصوفية وإثباته أنها علوم أحوال . وعن أصناف العلوم التي ينبغي أن يقف عليها ويتحقق بها السالك طريق الصوفيــة فيما هو بسبيله من تصحيح أعماله وذلك في قولــه : " و أول تصحيــح الأعمــال معرفة علومها ، وهي علم الأحكام الشرعية: من أصول الفقه من الصلاة والصــوم وسائر الفروض . إلى علم المعاملات من النكاح والطلاق والمبايعات ، وسائر مــا

أوجب الله تعالى وندب إليه ، وما لا غناء به عنه من أمور المعاش . وهذه علوم التعليم والاكتساب.

فأول ما يلزم العبد: الاجتهاد في طلب هذا العلم ، وإحكامه على قدر ما أمكنه ووسعه طبعه ، وقوى عليه فهمه ، بعد إحكام علم التوحيد والمعرفة على طريق الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح عليه ، بالقدر الذي يتيقن معه بصحة ما عليه أهل السنة والجماعة . فإن وفق لما فوقه من نفي الشبه التي تعترضه من خاطر أو ناظر فذاك. وإن أعرض عن خواطر السوء اعتصاما بالجملة التي عرفها وتجافى عن الناظر الذي يحاجه فيه ويجادله عليه ، وباعده ، فهو في سعة إن شاء الله عز وجل ، واشتغل باستعماله علمه ، وعمل بما علم فأول ما يلزمه علم آفات النفس ومعرفتها و رياضتها وتهذيب أخلاقها ومكائد العدو ، وفتنة الدنيا ، وسبيل الاحتراز منها (وهذا العلم علم الحكمة) فإذا استقامت النفس على الواجب وصلحت طباعها وتأدبت بآداب الله عز وجل من ذم جوارحها وحفظ أطرافها وجمع حواسها . سهل عليه إصلاح أخلاقها وتطهير الظاهر منها والفراغ مما لها ، وعزوفها عن الدنيا،وإعراضها عنها . فعند ذلك يمكن مراقبة الخواطر وتطهير السرائر (وهذا هو علم المعرفة) .

وبعد أن عدد الكلاباذي أصناف العلوم ، التي يستعان بها على تهذيب النفس الإنسانية وتطهيرها من آثامها وتهذيب أخلاقها على هذا الوجه الذي يعلم فيه الإنسان أولا ، ثم يعمل فيه بعد ذلك بما علم . يحدثنا عما يترتب على هذا العمل وذلك العلم من علوم أخرى أدق وأعمق وأكمل وأوغل في مكاشفة الأسرار ومشاهدة الأنوار ، و هي أخص خصائص العلوم الصوفية وذلك في قوله : " ثم وراء هذا علوم الخواطر وعلوم المشاهدات والمكاشفات وهي التي تختص (بعلم الإشارة) وهو العلم الذي تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم التي وصفناها. وإنما قيل: علم الإشارة لأن مشاهدة القلوب ومكاشفة الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق . بل تعلم بالمنازلات والمواجيد . ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال وحل تلك المقامات ".

والمتأمل في تاريخ التصوف الإسلامي ، وفيما اختلف عليه من أدوار ، وفيمـــا كان له من خصائص في كل طور من هذه الأطوار - يلاحظ أن الآثار الروحيـــة التي خلفها صوفية القرنين الثالث والرابع للهجرة ، فضلا عن الأقوال والمناجيـــات التي أثرت عن زهاد وعباد القرنين الأولين للهجرة ، يلاحظ أن كل أولئك أو جلـــه على أقل تقدير كان يتسم بسمات نفسية وأخلاقية وميتـــا فيزيقيـــة . وأن المعـــاني الأخلاقية كانت فيه أوغل وعلى التصوف العلمي والعملى أغلـــب ، وفـــى نفـــوس الزهاد والعباد والصوفية أفعل: ولقد كانت غلبـــة الخصـــائص الإســـلامية علـــى التصوف الإسلامى دافعا للمغفور له أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق نضـــر الله وجهه ، إلى أن يعد التصوف فى أول عهده.بالتكون العلمى-علما للأخلاق الدينيـــة الإسلامية ومعانى العبادة – مستدلا - رحمه الله على ذلك بقول ابـــن القيـــم (فـــى مدارج السالكين):(واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم علـــى أن التصـــوف هـــو الخلق) .وبقوله أيضا: (إن هذا العلم مبنى على الإرادة فهى أساسه ومجمع بنائـــه ، وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة ، وهى حركة القلب . ولهذا ســـمى علـــم الباطن . كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح . ولهذا سمى علـــم الظاهر) وبقول الكتانى: (التصوف هو الخلق فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك فـــى الصفاء) وبقول من قال : (علم السلوك هو معرفة النفس ما لها وما عليـــها مـــن الوجدانيات، ويسمى بعلم الأخلاق وعلم التصوف). فإذا كان ذلك كذلـــك ، وكـــان للتصوف أسماء هى أدل ما تكون على منازعه وخصائصه الأخلاقية . كأن يســـمى تارة بعلم الأحوال والمقامات . وتارة أخرى بعلم السلوك . وحيناً بعلم الطريقـــة . وأحياناً أخرى بأسماء أخرى ملائمة لما يندرج تحتها مـــن أبـــواب فـــى التـــهذيب والتأديب والخلق . تبيناً إلى أى حد ، وعلى أى وجه ، يمكن أن يعد التصوف علماً للأخلاق . ويعد الصوفية علماء للأخلاق . وتعد الطرق الصوفية بمن يجتمع فيـــها من المريدين المسترشدين حول المشايخ المرشدين ، وسائل لتأديب النفوس وتهذيب الأخلاق ، والبلوغ بالسالكين إلى كمال العلم وكمال العمل.

تعريفات التصوف وعناصره الأخلاقية

ولعل فيما عرف به الصوفية التصوف من تعريفات ما يـدل دلالـة صريحـة واضحة على العناصر الأخلاقية التى اشتمل عليها علمهم . وعلى مـا ينبغـى أن يحققه سالك طريقهم من المثل العليا ، التى تنطوى على أسـمى الغايـات . وأدق معانى الحق والخير. فقد عرف " أبو محمد الجريرى " التصوف بأنه : (الدخـول فى كل خلق سنى، والخروج من كل خلق دنى) وعرفه " الجنيد " بأنه : (تصفيـة القلب عن موافقة البريـة ، ومفارقـة الأخـلاق الطبيعيـة ، وإخمـاد الصفـات البشرية،ومجانبة الدواعى النفسية ، ومنازلة الصفات الروحانية والتعلـق بـالعلوم الحقيقية ، واستعمال ما هو أولى على الأبدية ، والنصح لجميع الأمة ، والوفـاء لله على الحقيقة ، واتباع الرسول ﷺ فى الشريعة) وقال " رويم " : (إن التصـوف مبنى على ثلاث خصال - إحداها عنده : (التحقق بالبذل والإيثـار) وذكـر " أبـو الحسن محمد بن أحمد الفارسى " أن للتصوف أركاناً عشرة منها:-

حسن العشرة وإيثار الإيثار.. فالدخول فى كل خلق سنى ، والخروج من كـل خلق دنى ، الذى ذكره الجريرى فى تعريفه . ومفارقة الأخلاق الطبيعية ، وإخمـاد الصفات البشرية ، ومجانبة الدواعى النفسية ، والوفاء لله على الحقيقـة ، واتبـاع الرسول {ﷺ} بالشريعة - التى ذكرها الجنيد فى تعريفه .. والتحقق بالبذل والإيثار الذى ذكره رويم - وحسن العشرة وإيثار الإيثار اللذان جعلهما الفارسى ركنين مـن أركان التصوف .. كل ذلك شواهد صدق ، وأدلـة حـق ، علـى أن للرياضـات والأذواق التى هى قوام التصوف خصائص أخلاقية إلى جانب ما لها من خصائص نفسية وميتافيزيقية.

المنهج الصوفى للبحث فى النفس الإنسانية

إن النفس الإنسانية التى عنى الصوفية بتحليلها ، ووصف آفاتها ، هـى التـى وضعوا لها قواعد السلوك ، ووسائل الرياضة ، وهى التى أفـاضوا فـى دراسـة حقيقتها والإبانة عن مصدرها الأول الذى صدرت منه ، وعن مصيرهـا الأخـير

الذى ستنتهى إليه، وهى بعد هذا كله ، هى التى أفاضوا فى وصف أحوالها ومقاماتها ، وما يعرض لها فى هذه المقامات وتلك الأحوال من أذواق ومواجيد. ولهذا: لا نكاد نجد مذهباً صوفياً بالمعنى الدقيق إلا وقد ائتلفت فيه العناصر النفسية والأخلاقية والميتافيزيقية ائتلافاً يختلط فيه بعض هذه العناصر ببعض . بحيث تبدو وكأنها وحدة مؤتلفة الأجزاء ، متسقة الأبعاد ، وبحيث لا يتبين الفرق بينها إلا عند التحليل الدقيق لما اختلف على نفوس الصوفية من أحوال ومقامات ، وما أخذوا به أنفسهم من رياضات ومجاهدات، وما انكشف لسرائرهم من أذواق ومشاهدات.

من كل ما تقدم نخلص إلا أن التصوف - بما يعول عليه أصحابه من علوم تعليمية كسبية ينبغى للسالكين أن يلموا بها قبل أن يأخذوا أنفسهم بأعمال التصفية والتنقية ، وبما تنتجه هذه الأعمال فى بواطن الخاضعين لها ، والآخذين أنفسهم بها من إشراقات الأذواق ونفحات العرفان - إنما هو: رياضة ومجاهدة من ناحية ومكاشفة ومشاهدة من ناحية أخرى. وأنه بعبارة أخرى عبارة عن: (علم لتهذيب النفس الإنسانية وعمل على تخلى هذه النفس عن الأخلاق المذمومة ، وتحليها بالفضائل المحمودة ، وأنه بعد هذا وذاك: استعداد للتجلى وتلق للفيض. أو هو بعبارة أوضح أدل على حقيقته وعلى حقيقة ما ينطوى عليه من المعانى العلمية العملية: (علم كلى اشتمل على ثلاثة علوم جزئية هى .. علم النفس، وعلم الأخلاق، والعلم الإلهى) . وهنا يتبين وجه الاتصال بين التصوف والفلسفة ، كما يتبين وجه الفساد فى زعم من زعم أن التصوف إنما هو محض أوهام وخيالات ، ومجرد أحلام وخرافات . إذ الحق الذى لا شبهة فيه ولا غبار عليه هو: أن التصوف ليس فى حقيقته - المبرأة من البدع والشوائب- إلا فلسفة روحية إسلامية تدور على النفس الإنسانية وما تقوم به أخلاقها، وتستقيم عليه أذواقها.

النفس الإنسانية بين الرياضة والذوق والخلق

إذا كانت النفس الإنسانية حظاً مشتركاً فى دراسته بين العلوم الصوفية المختلفة من نفسية وأخلاقية وإلاهية ، وكنا فى هذا البحث معنيين عناية خاصة بالجانب الأخلاقى للتصوف الإسلامى ، فقد وجب إذا أن نقف بادئ ذى بدء مع الصوفية

عند تعريفهم للنفس ، وفهمهم لمعناها . لا سيما ما يتعلق من دراستهم ، لها وعنايتهم بها ، من الناحية الأخلاقية .

فالقشيري يحدثنا عما أراده الصوفية بالنفس فيقول : " ان النفس عندهم هي ماكان معلولا من أوصاف العبد ، و مذموما من أخلاقه و أفعاله " و أن المعلولات من أوصاف العبد على ضربين: أحدهما: هو ما يكون كسبا للعبد كمعاصيه ومخالفاته ، وهو ما نهى عنه نهى تحريم أو نهى تنزيه . و ثانيهما: هو سفاسف الأخلاق و دنيئها . و هذه في أنفسها مذمومة . ولكنها تنتفى عن العبد عاجلها بالمجاهدة المستمرة . ومن هذا القبيل: الكبر والغضب والحقد والحسد وقلة الاحتمال : فكلها و كثير غيرها من الأخلاق المذمومة ، التي يمكن للإنسان أن يخلص منها ويجرد نفسه عنها . إذا خضع لما وضعه الصوفية من قواعد السلوك بصفة عامة . ولما وضعه المشايخ لمريديهم من هذه القواعد بصفة خاصة

و معنى هذا : أن النفس عند الصوفية إنما هي محل الأخلاق المذمومة،ومصدر الأفعال المرذولة . وإنه لكي يتحقق الإنسان بمعنى الإنسانية الذي تغلب فيه نفسه الناطقة على نفسه الشهوية ، و على نفسه الغضبية . فلابد من أن يدبر نفسه وبدنه تدبيرا تقوم فيه دواعي الإفراط والتفريط وهى الدواعي التي تقتضيها طبيعة النفس الحيوانية ، و قد أنطلقت على سجيتها فإذا هي تستجيب لكل رغبة من رغبات البدن ، وتمعن في كل شهوة أو نزوة ، دون أن يكون لها ضابط من التزام حدود القصد و الاعتدال

والصوفية فيها تحدثوا به عن طبيعة النفس ، قد وصوفوها بناء على ما ورد في القرآن بأنها أمارة بالسوء تارة . و بأنها لوامة تارة أخرى . و هي بهذين الوصفين مصدر للشرور والآفات . و لكنها إذا أخذت بالتصفية ، وهذبت بالتنقية،وحيل بينها وبين ما يفسد عليها الحياة الروحية الخالصة ، فهناك تستحيل هذه النفس التي كانت أمارة بالسوء ، وكانت لوامة ، إلى نفس مطمئنة ، يدعوها ربها إلى أن ترجع إليه راضية مرضية. وهناك في هذا الرجوع تكون النفس قد خلصت من جهالتها - وتنبهت من غفلتها . وصفت من أكدار حسها وشهوتها . فإذا

هي قد استحالت الى روح لطيفة صافية ، مستعدة لأن تتلقى ما يفاض عليها مـــن العالم العلوى من إشراقات متألقة ، و إلهامات مشرقة .

و جماع ما ينتهي إليه الصوفية فى أمر النفس هو "أنها حجاب بين العبد وربـه" وأن منشأ هذا الحجاب إنما يرجع إلى المذموم من اخلاقها ، سواء أكان هذا المذموم فطريا أم كسبيا . و أن سبيل العبد إلى الاتصال بربه ، إنما يكـون بكشـف ذلـك الحجاب و أن هذا الكشف إنما يحصل بمقدار ما يأخذ به العبد نفسه من رياضـات ومجاهدات . على أن الصوفية فيما راضوا به أنفسهم من مكابدات ومجاهدات قـد أطلعونا على تحليلات نفسية لها قيمتها في الكشف عن طبيعة النفـس الإنسـانية ، والإبانة عما تنطوي عليه هذه النفس من دوافع تحفزها إلى هذا الفعل أو ذاك ، مـن الأفعال التي تبعد أو تقرب كثيرا أو قليلا من الخير . كما أنهم بهذه التحليلات قـد أظهرونا على ما تعالج به النفس ، حتى تخلص من دوافع الأذى ودواعي الـهوي . و حتى تصبح أهلا للتخلق بالأخلاق الكريمة ، والتجرد من الأخلاق الذميمة . و هم في ذلك كله إنما يطبون كل نفس بما يلائمها ، و يعدون لكل طائفة من النفوس مـا تصلح به من القواعد التي تنتهي بها إلى تحسين الخلق .

لذلك فليست النفوس كلها عندهم سواء في دوافعها وغاياتها ، لا هي كذلك فـي أحوالها وأفعالها . و إنما كل أولئك فيها متفاوت . ومن هنا كان التفاوت في طرق العلاج ، ووسائل التطهير النفسي من الشرور والآفات . و من هنـا أيضـا كـان التفاوت بين طبقات الناس فيما يستجيبون إليه ، ويقبلون عليـه ، مـن الأعمـال والأخلاق – فالسهروردي صاحب " عوارف المعارف " يحدثنا في هذا الصدد بـأن هناك نفوسا تجيب إلى الأعمال ولا تجيب إلى الأخلاق: فنفوس العباد أجابت إلـى الأعمال و جمحت عن الأخلاق . و نفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخـلاق دون البعض.ونفوس الصوفية أجابت إلى الأخلاق الكريمة كلها . و يفصل السـهروردي ما أجمله هنا ، في موضع آخر من كتابه فيقابل بيـن طبقـات العبـاد و الزهـاد والصوفية من ناحية ، وبين مراتب الإسلام والإيمان و الإحسان من ناحية أخرى . وهو بهذه المقابلة إنما يضفي على دراسة النفس الإنسانية وتحليلها وتقويم أخلاقـها،

ثوبا صوفيا إسلاميا ، إلى جانب ما تتشح به من وشاح نفسي أخلاقي معا . فعنده أن نفوس العباد قد أجابت إلى الأعمال ، لأنهم سلكوا بنور الإسلام . وأن نفوس الزهاد أجابت إلى بعض الأخلاق لأنهم سلكوا بنور الإيمان . وأن نفوس الصوفية وهم أهل القرب قد أجابت إلى الأخلاق كلها لأنهم سلكوا بنور الإحسان .

ويعلل السهروردى لما قاله آنفا: بأن بعض القلب ينصلح بنور الإسلام . وأن بعضه الآخر ينصلح بنور الإيمان وأن القلب كله ينصلح بنور الإحسان والايقان . ويتبين الثوب الصوفي الإسلامي الذي يضيفه السهر وردي على تحليله النفسي الأخلاقي لمختلف النفوس في مختلف الطبقات : إذا عرفنا أن الإسلام : هو الخضوع و الانقياد لما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم . وأن الإيمان : هو الاعتقاد بالقلب و الإقرار باللسان . و أن الإحسان : هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . و ليس من شك فى أنها أرقى مرتبة تتخلق النفس الإنسانية فيها بالأخلاق الكريمة كلها . وهذه المرتبة التى تصفو فيها النفس ، و ينقى فيها القلب على وجه يتحقق العبد معه بالأذواق الروحية المشرقة بالأنوار التي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن العبد قد سلك في حياته النفسية والخلقية مسلكا أخص خصائصه أنه إنما يعبد الله كأنما يراه وأنه في كل ما يخطر بنفسه من خطرة ،وفي كل ما يدور بعقله من فكره ، وفي كل ما يصدر عنه من قول أو فعل . إنما يشهد الله و يشهده الله . و من كان كذلك فقد كملت فيه قواه النفسية والعقلية . و جملت فيه كل أفعاله الخلقية . سواء في حياته الفردية أو الاجتماعية .

و بالتأمل مع الصوفية في النفس الإنسانية ، وتحليلهم لها ، و تقويمهم لأخلاقها يلاحظ أنهم يرون في هذه النفس عنصرين يمنعانها عن الخير ، و أن أحد هذين العنصرين هو انهماكها في الشهوات . و أن الآخر هو امتناعها عن الطاعات . و يلاحظ أيضا أنهم فيما يأخذونها به من رياضات ومجاهدات ، يصفون جموحها وجنوحها أولا . ثم يصفون بعد ذلك ما ينبغي أن تؤخذ به وتراض عليه من الطرق النفسية و الخلقية ، التي تكفل تطهيرها من ذينك العنصرين المشار إليهما آنفا .

فعندهم أن النفس إذا جمحت عند ركوب الهوى ، وجب كبحها بلجام التقـــوى . وإذا حزنت عند القيام بالموافقات ، وجبْ سوقها على خلاف الهوى . وإذا ثــــارت عند غضبها فقد وجبت مراعاة حالها .وواضح هنا أن الصوفية قد خـــبروا النفـــس الإنسانية ، وعرفوا أهواءها و آفاتها التي تعرض لها في أحوالها المختلفة .وأنـــــهم بما عرفوا وبما خبروا قد استطاعوا أن يلائموا بين ما يعمل عمله فيها من دوافـــع ونوازع ،وبين ما تخلص به و تبرأ من ألوان الرياضة ، و دروب المجاهدة ، التـــي تناسب كل حال من أحوال النفس. لأن ما يصلح لها فتنصلح به في حال ما ، قـد لا تنصلح به في حال آخر. على أن للمجاهدة مع هذه التربية الجزئية إن صـــح هــذا التعبير أصلا كليا عند الصوفية . وهذا الأصل على حد تعبيرهم : فطم النفس عـــن المألفات ، وحملها على خلاف هواها في عموم لأوقات - و هـــذا يعنـــي بعبـــارة أخرى: أن النفس ينبغي أن تهذب وتؤدب على متقضى هذا الأصل بصفة عامة فى كل حال ، وفي كل وقت ، وأنه على هذا الأصل الكلي تتفرع الفروع الجزئية مـــن أنواع التهذيب والتأديب التي تصلح بها و تطهر في كل حالة من الحالات ، و فـــي كل وقت من الأوقات . وذلك بحسب ما تقتضيه كل حالة، و يستلزمه كل وقت .

و قد عبر" السراج الطوسي " فيما نقله عنه القشيري تعبيرا مفصلا لما أجمـــل فى هذا الأصل الكلي العام ، من ألوان الأدب و دروب الأخلاق . وذلك في حديثـــه عن آداب أهل الخصوصية من الصوفبة المتخصصين فقال :" إن كثير آدابهم فـــي طهارة القلوب و مراعاة الأسرار ، و الوفاء بالعهود وحفظ الحدود ، و قلة الالتفات إلى الخواطر، وحسن الأدب في مواقف الطلب ، و أوقات الحضـــور ، ومقامـــات القرب . فإذا كان الأدب هو كما عرفه السهروردى : تهذيب الظاهر والبـــلطن ، و أخذ العبد نفسه بتهذيب ظاهره وباطنه . فقد تبين إذا أن الصوفي الذي يأخذ نفســـه بهذا التهذيب على هذين الوجهين هو الذي يصير صوفيا أدبيا

و يرى السهروردي أن الأدب لا يتكامل في العبد إلا بتكـــامل الأخــلاق و أن تحسين الخلق هو الأداة التي بها تحصل في العبد مكارم الأخـــلاق . إذ للإنســـان صورة ومعنى . وصورته هي خلقه . ومعناه هو خلقه . وهنا نتسائل : هل الخلـــق

فطري في الإنسان لا سبيل إلى تبديله ، أو هو كسبي يمكن تبديله ؟ و قـــد أجـــاب بعض الصوفية على هذا السؤال: بأن الخُلق كالخَلق لا سبيل إلى تبديلـــه . علـــى حين يرى السهروردي أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليـــه بخـــلاف الخلـــق . واستدل السهروردي على صحة ما يذهب إليه بما روي في الحديث الشريف مـــن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " حسنوا أخلاقكم " و قد خلـــق الله الإنســـان وهيأه لقبول الصلاح والفساد ، و جعله أهلا للأدب ومكارم الأخلاق . و الله بقدرته قد ألهم الإنسان ومكنه من إصلاح نفسه بالتربية ، وأن السجية عنـــد الســـهروردي هي من فعل الحق لا قدرة للبشر على تكوينـــها. و أن الآداب منبعـــها الســـجايا الصالحة والمنح . و أن الأدب هو " استخراج ما في القوة إلى الفعل ، و هذا يكون لمن ركبت السجية الصالحة فيه . و ينتهي السهروردي من هذا التحليل الصوفـــي الفلسفي لطبيعة النفس الإنسانية ، ومن الإبانة عن أثر الممارسة والرياضة في تربية النفس و تخلقها بالأخلاق الكريمة: إلى أن نفوس الصوفية ، و قد هيأها الله تعـــالى بتكميل سجاياها، قد توصلت بحسن الممارسة والرياضة الى اســـتخراج مـــا هـــو مركوز فى النفوس بخلق الله إلى الفعل . فصار الصوفية مؤدبين مـــهذبين . و إذا كانت الممارسة والرياضة سبيلا إلى إخراج ما هو مركوز في النفس من القوة إلـــى الفعل و كان سلطان الغرائز متفاوتا في وجوده و عدمه وقوته وضعفـــه بتفـــاوت الأشخاص . فقد استعان الصوفية على تهذيب النفوس بوسيلة عملية ، و كانت هـــذه الوسيلة العملية عندهم هي صحبة المريدين للمشايخ ، بحيث تكون هـــذه الصحبـــة عونا على استخراج ما في الطبيعة إلى الفعل . وذلك على وجه سنبينه مفصلا بعد.

إبراز الخصائص الأخلاقية للرياضات والأذواق الصوفية

إذا أردنا أن نبرز بعد هذا كله الخصائص الرياضية والأخلاقية للرياضات والأذواق الصوفية . ألفينا هذه الخصائص أظهر ما تكون عند مؤلف من كبار مؤلفي الصوفية و أئمتهم و هو أبو اسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري" الهروي" صاحب " منازل السائرين إلى رب العالمين " و مؤلف هذا الكتاب يمتاز بتعريفاته الواضحة وتصنيفاته البارعة ، وتقسيماته المبينة عن العناصر النفسية والخلقية التي تنطوي عليها وتتألف منها الفكرة أو الحقيقة التي يعرض لها ، ويريد أن يصل من عرضها إلى تحليلها و كل ذلك في إيجاز عميق وتركيز دقيق . و حسبنا هنا أن نقف معه عندما أورده من معاني الرياضة و التهذيب والخلق من ناحية . وعند تحليله لكل منها و تقسيمه لها إلى درجات من ناحية أخرى . بحيث نتبين معه من خلال ما يقدمه إلينا في هذا الصدد مبلغ عنايته بالنفس الإنسانية ، و مكان هذه النفس من الرياضة و التهذيب و التخلق ، وأثر هذا كله فيها . بحيث تتخلى عن الأخلاق المذمومة ، وتتحلى بالأخلاق المحمودة ، و تعود إلى ما كانت عليه قبل اتصالها بالبدن من نقاء السيرة وصفاء السريرة . و جلاء البصيرة . فالرياضة كما يعرفها الهروي هي " تمرين النفس على قبول الصدق " و هي عنده على ثلاث درجات :

الدرجة الأولى : " رياضة العامة " " و هي تهذيب الأخلاق بالعلم ، و تصفية الأعمال بالإخلاص ، و توفير الحقوق في المعاملة " .

الدرجة الثانية : " رياضة الخاصة " " و هي حسم التفرقة . وقطع الالتفات إلى المقام الذي يكون قد جاوزه في سلسلة المقامات التي يمر بها في سلوكه . وإبقاء العلم يجري مجراه "

الدرجة الثالثة : " رياضة خاصة الخاصة " " و هي تجريد الشهود . و الصعود إلى الجمع . و رفض المعارضات وقمع المفاوضات "

وقد عقب " ابن القيم الجوزية " على تعريف الهروي للرياضة بقوله " إن تمرين النفس على قبول الصدق يراد به أمران : أحدهما: (تمرين النفس على قبول الصدق إذا عرضه عليها في أقواله وأفعاله وإراداته) و ثانيهما: (قبول الحق ممن يعرضه عليه) و عقب ابن القيم الجوزية على الدرجة الأولى من درجات الرياضة بقوله " إن تهذيب الأخلاق بالعلم . يراد به إصلاح النفس وتصفيتها بموجب العلم . بحيث لا يتحرك العبد حركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم . وهذا يعني: أن تكون حركات العبد في ظاهره وباطنه موزونة بميزان الشرع . وأما تصفية الأعمال بالإخلاص: فإنها تعني تجريدها عن أن يشوبها باعث لغير الله تعالى .وأما توفير الحقوق في المعاملة: فالمراد به أن يعطي العبد ما أمر به من حق الله و حقوق العباد كاملا موفورا . ويرى ابن القيم " أنه لما كان تهذيب الأخلاق بالعلم وتصفية الأعمال بالإخلاص ، وتوفير الحقوق في المعاملة ، من الأمور الشاقة على النفس ، لهذا كان تكليفها رياضة ، حتى إذا اعتادها الإنسان صارت خلقا " و قد أظهر ابن القيم فيما عقب به على الدرجة الثانية من درجات الرياضة ، الصلة بين الرياضة والذوق و الخلق . و ذلك إذ يبين أن المعنى " بحسم التفرقة: " هو قطع ما يفرق قلب الإنسان عن الله ، والإقبال بكليته على الله ، بحيث يكون حاضرا معه بقلبه كله.و أن المعنى بقطع الالتفات عن المقام الذي جاوزه العبد : هو ألا يشغل العبد نفسه باستحسان علوم ذلك المقام ، بحيث يقبل على الله ويعرض عن الاشتغال بذلك المقام فلا يكون له من مقامه ذلك حجاب يقف عنده عن السير و لاسيما أن السالك الصادق هو الذي لا ينظر إلى ما وراءه ، وإنما ينظر إلى ما أمامه . فهو لا يتأخر ولا يتخلف ولا يقف، إنما هو دائم السير و دائم التقدم " و أما ما يعنيه الهروي بإبقاء العلم يجري مجراه فهو عند بن القيم " أن يستسلم العبد للعلم ، وألا يقف العبد من العلم موقف المعارضة بذوق أو حال . بل هو يمضي مع العلم حيث يذهب به العلم " و هذا يعني بعبارة أخرى: أن يحكم العلم على الحال . و لما كان هذا الضرب من الرياضة صعبا فهو لم يتهيأ إلا للصادقين من أرباب العزائم ،الذين تمرنت نفوسهم عليه حتى يصير لها خلقا . و كذلك شأن أكثر السالكين مع العلم .

فهؤلاء إذا لاحت لهم بارقة " غلبة حال أو ذوق خلوا العلم وراء ظهورهم وفضلـوا عليه الحال ، فكانوا بذلك من أهل الانحراف " الذين يصـــدون عــن ســبيل الله و يبغونها عوجا " .

وأما الدرجة الثالثة من درجات الرياضة : " و هي رياضة خاصة الخاصـــة " فخلاصة ما يعقب به عليها ابن القيم هي: " أن يتحقق العبد فيما يصل إليـــه مــن الشهود بالكمال " و الكمال هو كما يقول ابن القيم: " شهود الأمر على ما هو عليـه بحيث يشهد العبد الذات الإلهية موصوفة بصفات الجلال والكمال . فكلما كثر شهود العبد لمعاني الأسماء والصفات ، كان شهوده آكد وإن رفض المعارضات يعني: أن يعرض العبد عما يعارض شهوده الجمعي من التفرقة من ناحية . وعما يعـــارض إرادته من ناحية أخرى ، وما يعارض مراد الله من المرادات من ناحية ثالثة. وإن قطع المفاوضات والمعارضات يراد به: تجريد المعاملة عن إرادة المعارضة أى أن يجرد العبد معاملته لذات الله بحيث تكون عبادته لله مقصود بها وجه الله لذاته . ولو لم يحصل العبد عوضا منه ، بحيث ينظر الإنسان إلى الله على أنه أهل لأن يعبـــد لذاته .لا لعلة ولا لعرض ولا لغرض ولا لمطلوب . وليس أدل على كمـــال هــذه المرتبة من أن المحب الصادق الذى تجرد عن ملاحظة العوض فى حبه لله ، قـــد لاحظ فى هذا الحب أعظم الأعواض وأشرفها ، وهو قربه من الله تعالى . ووصوله إليه واشتغاله به عما سواه ، والتنعم بحبه ولذة الشوق إلى لقائه .

وهكذا نتبين مع كل من صاحب (منـــازل الســـائرين) وصـــاحب (مــدارج السالكين) أن الرياضة بدرجاتها الثلاث ، وبما يحصل فيها للنفس من تصفية ، وما يختلف عليها من أذواق ، هى الطريقة النفسية والخلقية التى اصطنعها الصوفية فيما ينبغى أن تؤخذ به النفس من تهذيب وتصفية ، حتى تتخلق فى قولها وعملها وذوقها وشهودها بأكمل الأخلاق ، فلا تصدر فى إرادتها إلا عن إرادة الله تعالى ، ولا تقبل فى حبها إلا إلى الله ولا تبتغى من وراء هذا كله عوضا إلا شهود الله . وهى متـــى انتهت إلى هذه الغايات العليا تكون قد تحققت من غـــير شـــك بالكمـــال الأســمى والسعادة القصوى .

تعريف التهذيب وبيان درجاته

ويتصل التهذيب بالرياضة اتصالا وثيقا . بل إن معناه هو أدخل المعانى فيـــها ومرماه هو أدل المرامى عليها ، وقد عرفه الهروى بأنه: شـــريعة مـــن شـــرائع الرياضات . وجعله على ثلاث درجات : الأولى : وهى تـــهذيب الخدمـــة . بـــألا يخالطها، جهالة ، ولا تشوبها عادة ، ولا تقف عندها همة . والثانية هي: تـــهذيب الحال . فلا يجنح الحال إلى علم ، ولا يخضع لرسم ، ولا يلتفت إلى حظ ، والثالثة هي: تهذيب القصد.وهـــو تصفيتـــه مـــن ذل الإكـــراه ، وحفظـــه مـــن مـــرض الفتور،ونصرته على منازعات العلم .

ويتبين وجه الاتصال بين الرياضة والتهذيب ، مما يشرح به ابن القيم معنـــى قول الهروى أن التهذيب شريعة من شرائع الرياضات ، إذا لاحظنا مـــع صـــاحب (مدارج السالكين) أن الدرجة الأولى من مدارج التهذيب التـــى يذكرهـــا صـــاحب (منازل السائرين) إنما تعنى تخليص العبودية وتصفيتها ، فـــلا يخـــالط العبوديـــة جهالة، بحيث لا يفعل العبد أفعالا يعتقد أنها إصلاح وهى إ فساد لخدمته وعبوديته. ولا يمازج العبودية حكم من أحكام النفس ، ولاحظ من حظوظها ، ولا تقف همـــة العبد فى عبوديته عند الخدمة ، فإن ذلك علامة ضعفها وقصورها ، فكما أن المحب لا يقنع بشىء دون محبوبه . فكذلك يجب على العبد ألا يقف فى خدمته عند طلـــب الأجر على هذه الخدمة، وإنما يجب أن تكون خدمته مبرأة عن كل غرض ، إلا أن يكون غرضه هو وجه من تعبد له . وكذلك الدرجة الثانية من درجات التهذيب فهى قد انطوت على معنى من أدق المعانى الذوقية والخلقية معا . ذلك بأن تهذيب الحال إنما يكون كما شرطه " ابن القيم " بأن يعلـــم أن المعرفـــة الصحيحـــة هـــى روح العلم،وأن الحال الصحيح هو روح العمل المستقيم ، وإذا كان ذلك كذلك : فإن كـــل حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقا للعلم ، فـــهو بمنزلـــة الـــروح الخبيثـــة الفاجرة. وهذا يعنى بعبارة أخرى من عبارات " ابن القيم " نفسه: أن العلم الصحيح والعمل المستقيم هما ميزان المعرفة الصحيحة ، والحال الصحيح. وأما ما يذكـــره " الهروى " فى هذه الدرجة الثانية من عدم الخضوع لرسم: فإنه يعنى به ألا يســـتولى

على قلب العبد شئ من الكائنات بحيث يخضع له قلبه . وأما ما يعنيه بقوله: (ولا يلتفت إلى حظ) فهو: ألا يشتغل العبد بفرحه عما يحصل له فى الحال التام من استلذاذ . فإن ذلك حظ من حظوظ النفس ، وبقية من بقاياها .

وإذا انتقلنا مع " الهروى " و" ابن القيم " إلى الدرجة الثالثة من درجات التهذيب. ألفيناها تبلغ بنفس العبد إلى أصفى وأنقى ما ينبغى أن تكون عليه نفس ، قد تهذبت بالرياضة ، وتأدبت بالمجاهدة . فتهذيب القصد بتصفيته عن ذل الإكراه ، وبحفظه من مرض الفتور ، ونصرته على منازعات العلم . كل أولئك معان لها أثرها فى حياة الإنسان الخلقية العملية ، الى جانب ما لها من خطر فى حياته الذوقية والروحية. فتصفية القصد عن ذل الإكراه معناه : ألا يسوق الإنسان نفسه إلى ربه خوفا أو طمعا أو كرها ، بل تكون دواعى قلبه منجذبة إلى الله طوعا ومحبة وإيثارا. وتصفية القصد بحفظه من مرض الفتور معناه: أن يقى الإنسان نفسه من مرض الفتور ، إذ العزم هو روح القصد ، ووقايته من هذا المرض تكون باللهو عن الفضول من كل شئ،والحرص على ترك مالا يعنيه ، ومصاحبة من يعنيه . وتصفية القصد بنصرته على منازعات العلم: إنما تكون بإقبال العبد بكليته على الله تعالى ، إذ العلم يطلب من العبد العمل ، رغبة فى الثواب ، ورهبة من العقاب،وذلك ما ينبغى أن يتجرد عنه قصد العبد ، بحيث يكون القصد محبة الله بلا علة أى محبة خالصة ، مجردة عن النظر إلى ما يمنحه الله للعبد ، أو يمنعه عنه . وتلك لعمرى أسمى مرتبة يسمو إليها قصد الصوفية فيما سلكوا من طريق الحب الإلهى ، وفيما عبروا به عن أذواقهم ومواجيدهم فى هذا الحب ، فكان منهم من أحسن العبارة،وكان منهم من أساء ، ولكن حسن قصده أصلح فساد عبارته ، وكان من الناس من لم يجد هذه المواجيد ، ولم يذق تلك الأذواق ، فلم يفهم كما ينبغى،ولم يجد سبيلا إلا الإنكار . ولما كانت الرياضة والتهذيب من التصوف بمثابة الأداة العملية التى يستعان بها على تصفية النفس . وتنقية القلب،والتخلق بالأخلاق الكريمة، بحيث يصبح الإنسان صافى النفس بكل ما تدل عليه لفظة الصفاء من معنى ، فقد اجتمعت كلمة الناطقين فى علم التصرف ، على أن التصوف هو

الخلق،وأن من زاد عليك بالخلق زاد عليك فى الصفاء ، ومن هنا رأى الـهروى أن جماع الكلام فى التصوف باعتباره خلقا يدور على قطب واحد: وهو بذل المعروف ، وكف الأذى . وأن الخلق عنده على ثلاث درجات :

الدرجة الأولي هي: أن يعرف الإنسان أقدار الناس ، فيحسن أخلاقه معـــهم فـــى معاملاتهم ، وكيفية مصاحبتهم ، فيستفيد أمن الناس ومحبتهم له ونجاتهم به .

والدرجة الثانية هي : حسن ظن الإنسان مع الله . بحيث يعلم أن ، كل ما يأتى منـه يوجب عذرا . وأن كل ما يأتى من الله يوجب شـــكرا . وألا يرى العبد من الوفاء بدا.

والدرجة الثالثة هي : أن يتخلق الإنسان بتصفية الخلق . وذلك بتكميل ما ذكر فـــى الدرجتين السابقتين . ثم يصعد عن تفرقة التخلق . ثم يتخلـق بمجاوزة الأخلاق . فإن التصوف والتخلق تهذيب واسـتعداد للإقبال على الله ، والاشتغال به ، والقرب منـــه . كمـا أن أسمى ما يصل إليه المتخلق من مراتب التخلق هو: مجـاوزة الأخلاق كلها . بأن يغيب الإنسان عن الخلق والتخلق . فـإن وقوف الإنسان عند الخلق والتخلق إنما هو حجاب بين العبـد وبين ربه . أو هو تفرقه بين المحب وبين محبوبه . والإقبال على الله والاشتغال به والإعراض عن كل ما سواه والغيبـــة عنه ، كل أولئك وما ينطوى عنه من نغمات الحب الشـــوق ولمعات الأنس والذوق ، هو عند الصوفية أعـــز الغايـات وأمنعها ، وأروع النهايات وأمتعها . وسنبين هذا عند حديثنا عن " رابعة " التى علمت الصوفية معنى الحب الإلهى ،لأنها أول من تغنت بنغمات هذا الحب فى رياض الصوفية .

المبادئ الأخلاقية للطرق الصوفية

وقفنا فيما سبق على الخصائص الأخلاقية التى تتسم بها الرياضـــات والأذواق الصوفية من الناحية النظرية . أى من الناحية التى ينظر منها إلى التصوف علـــى أنه علم للأخلاق الإسلامية .

ولكن التصوف ليس عمليا فحسب ، ولا هو وقوف عند النظـــر المجـــرد فـــى المعانى الأخلاقية التى ينطوى عليها فحسب ، وإنما هو كذلك ، وهو شئ آخر فوق كل ذلك .

وأعنى بهذا: أنه عمل الى جانب ما هو علم ، وتخلق بعـــد أن يكـــون علمـــا للأخلاق . وهذا يعنى بعبارة أخرى: أن الصوفى لا يكون صوفيا متحققا إلا إذا كان عاملا . ولا يكون الصوفى كذلك منذ أول عهده بالسير فى طريق الصوفية كما أنه لا يعول على نفسه وحدها فى رياضة نفسه وتهذيبها . وإنما يكون أول ما يكـــون مريدا مسترشدا ، متصـــلا بشـــيخ مرشـــد ، يخضعـــه للألـــوان مـــن الرياضـــة والمجاهدة،ويأخذه بفنون من التهذيب ، وضروب من الترغيب والترهيب ، وما يفتأ كذلك يتقلب فى منازل السير ، ويتدرج فى مدارج السلوك ، مقتحما كل عقبة مـــن عقبات النفس ، متحررا من كل قيد من قيود الحس ، مقبلا على الله بكنـــه همتـــه مستفيدا بشيخه ، مسلما نفسه فى هذا كله له ، فهو الذى يبصـــره بعيـــوب نفســـه ويكشف له عن خفاياها ، حتى يتخلى عن الأخلاق المذمومة ، ويتحلى بـــالأخلاق المحمودة، ويصبح متخلقا ثم متحققا بعد ذلك .

ومن هنا: كانت الخصائص الأخلاقية للرياضـــات والأذواق الصوفيـــة أظـــهر وأبرز ما كانت فى السلوك العملى ، الذى يسلكه المريد المسترشد ، علـــى أيـــدى المشايخ المسترشدين ، ومن هنا أيضـــا: كـــانت الصلـــة بيـــن هـــؤلاء المشـــايخ المرشدين،وبين أولئك المريدين المسترشدين ، قواما للتصوف العلمى بل هى أقـــوم وأعظم دعامة من الدعائم العلمية ، التى يقوم عليها صرح التصوف باعتباره علمـــا للأخلاق الإسلامية .

ولكى يتبين هذا بوضوح : يجب أن نقف مع الصوفية المسلمين عند هذه الصلة بين المشايخ والمريدين ، ونحللها الى عناصرها التى تكشف عن المبادئ الأخلاقية التى تستند اليها ، والقواعد العملية التى تقوم عليها ، والتى لا يستطيع المجحفون بحق التصوف والصوفية أن ينكروا خطورتها وأثرها البعيد ، فى تصفية النفوس وتنقية القلوب ، وإقامة الأخلاق الإنسانية على أسس روحية خالصة ، وفى إشاعة المثل الأخلاقية العليا فى حياة الفرد والجماعة .

والمتأمل فى الصلة بين المشايخ والمريدين من جهة ، وبين المريدين بعضهم مع بعض من جهة أخرى ، يلاحظ أن هذه الصلة تستمد مقوماتها وموجهاتها،ومثلها العليا ، من ثلاث عناصر هى : (الخدمة والصحبة والأخوة) وأن كلا من هذه العناصر يستلزم قواعد وشروطا ، ويتطلب واجبات ويستتبع حقوقا ، وأن هذه الحقوق والواجبات ، وتلك الشروط والقواعد ، هى بمثابة المواد التى يتألف منها القانون الأخلاقى ، الذى تنتظم به حياة هؤلاء الناس فى أمور معاشهم ومعادهم .

آداب الخدمة والصحبة والأخوة

على أن لكل من الخدمة والصحبة والأخوة آداب . أفاض الصوفية فى بيانها،فضلا عما تعمله من عمل فى نفوس السالكين . سواء أكانوا من المشايخ أم من المريدين .

أما الخدمة : فقد فصلوا القول فى معانيها ، وشرحوا حال الخادم ، وحال المتشبه به فيها ، وقد أفرد " السهروردى " فصلا من "عوارف المعارف " بين فيه ما تنطوى عليه خدمة الإخوان ، وحال الخادم فى خدمته من المعانى الخلقية، سواء أكانت هذه الخدمة متعلقة بما ينبغى عليه القيام به من واجبات نحو ربه أو نحو أشباهه .

فالخادم يدخل الخدمة أول ما يدخل راغبا فى الثواب ، وفيما أعده الله لعباده المتقين ، وهو من هذه الناحية ملزم بأن يراقب الله تعالى ، ويتقيه فى كل قول أوفعل ، بحيث يتهيأ له الظفر برضوان الله تعالى .

والخادم بحكم خدمته وإقباله عليها ، ملزم بإيصال الراحة إلى إخوانه ، فلا يصدر عنه قول يغضب ، ولا فعل يؤذى ، ولابد أن يفرغ خاطره من مهام معاشه. وليس معنى هذا أن ينقطع عن العمل ويركن إلى الكسل. وإنما معناه ألا تكون أمور معاشه هى شغله الشاغل الذى يشغله لدرجة تنقطع فيها الصلة بينه وبين ربه،وتتغلب فيها أثرته على إيثار غيره .

الخدمة الصحيحة

على أن الخدمة الصحيحة المستقيمة المتمشية مع القانون الاخلاقى للصوفية، والمقصود بها تحقيق المثل الأعلى الذى قصدوا إليه ، وأخذوا مريديهم به ، هى التى تكون خالصة لله تعالى من شوائب الهوى والغرض والمحمدة والثناء . فمن لم تكن خدمته خالصة من هذه الشوائب ، لم يكن خادما بالمعنى الصحيح الذى تدل عليه الخدمة وتقصد إليه ، وإنما هو متخادم مدع للخدمة ، مشبع لرغبات نفسه ، وأهوائها أكثر مما هو محافظ على حقوقها ،مؤد لواجباتها .

وقد عبر (السهروردى) عن هذه المعانى تعبيرا دقيقا من الناحية النفسية والخلقية فى قوله : (فأما من لم يعرف تخليص النية من شوائب النية ، وتشبه بالخادم ، وتصدى لخدمة الفقراء ، ودخل فى مداخل الخدام بحسن الإرادة متأسيا بالخدام ، فتكون خدمته مشوبة ، منها ما يصيب بحسن الإرادة فى خدمة القوم، ومنها مالا يصيب فيها . لما فيه من مزج الهوى ، ووضع الشيء فى غير موضعه ، وقد يخدم بهواه فى بعض تصاريفه ويخدم من لا يستحق الخدمة فى بعض أوقاته ، ويحب المحمدة والثناء من الخلق ، مع ما يحب من الثواب ورضى الله تعالى ، وربما خدم للثناء ، وربما امتنع فى الخدمة لوجود هوى يخامره فى حق من يلقاه بمكروه ، ولا يراعى واجب الخدمة فى طرق الرضا والغضب ولا تأخذه فى الله لومة لائم . فإذا الشخص الذى وصفناه آنفا متخادم وليس بخادم . ولا يميز بين الخادم والمتخادم إلا من له علم بصحة النيات وتخليصها من شوائب الهوى..) هذا فيما يعلق بالخدمة .

وأما الصحبة والاخوة :- فلهما آداب عند الصوفية ، نتبين من خلالها معنى كل منها. والمبادئ الخلقية التى تندرج فى كل أدب من آدابهما .

فإذا أخضع المريد نفسه لكل مبدأ من هذه المبادئ ، وتخلى عن كل رذيلة،وتحلى بكل فضيلة . فإن هذا من شأنه أن يصل به إلى تحقيق غاية

الكمال فيما هو بسبيله من نيات وخواطر وخطرات . ومن أقوال وأفعال فـــى صحبته ، لإخوانه وأخوته لهم ، بحيث تصبح صحبته مبرأة من الآفات، وأخوته منزهة عن الشوائب والأغراض .

وقد أجمل " أبو حفص الحداد " أحد أئمة الصوفية آداب الفقراء فى الصحبة فقال معددا لها :

١- حفظ حرمات المشايخ .

٢- حسن العشرة مع الإخوان .

٣- النصيحة للأصاغر .

٤- ترك صحبة من ليس فى طبقتهم .

٥- ملازمة الإيثار .

٦- مجانبة الادخار .

٧- المعاونة فى أمر الدين والدنيا .

وما أجمله أبو حفص هنا ، قد فصله الصوفية فى كتبهم وأقوالهم المتفرقة فـــى كتب التراجم والطبقات . وحسبنا أن نقف معهم عند إحصاء تلك الآداب التى ينبغى أن يسير عليها المشايخ والمريدون فى صحبة بعضهم ، وأن يتخلق بها المريـــدون فى أخوة بعضهم .

وهذه الآداب هى :-

١- إسلام المريد نفسه لشيخه وطاعته له.

٢- التغافل عن ذلة الإخوان .

٣- النصح فيما يجب النصح فيه .

٤- كتم عيوب الأصحاب ، وستر عوراتهم ، وإطلاعهم على ما يعلم من عيوبهم .

٥- القيام بخدمة الإخوان ، واحتمال الأذى منهم .

٦- اتهام الإنسان عند استثقاله صاحبا ، ومحاولته إزالة هذا الاستثقال من نفسه .

٧- بذله الإنصاف للإخوان ، وترك مطالبة الإنصاف لنفسه .

٨- أن ينظر الإنسان لنفسه على أنه تبعا لأخيه ،ولا يطالب أخاه بأن يكون تبعا له.

٩- استكثاره من ما يصل إليه من أخيه واستقلاله ما يصل الى أخيه منه .

١٠- لين الجانب .

١١- ترك ظهور النفس بالصولة . إذ هى كما قال أبو على الروزبارى : (على من فوقك قحة ، وعلى من مثلك سوء أدب ، وعلى من دونك عجز) .

١٢- المداراة وترك المداهنة .

١٣- رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط (إذ الانقباض عن النـــــاس مكســـبه لعداوتهم ، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء . وخير للإنســـــان كمـــا قـــال الشافعى: أن يكون بين بين) .

كل أولئك : آداب عالية ، وأخلاق سامية ، وعناصر نفسية وخلقيـــة ، يقـــوم عليها ويتألف منها الدستور الأخلاقى ، الذى رسمه الصوفية لطريقـــهم ، وعملـــوا على تطبيقه فى الحياة الفردية والاجتماعية . وكانوا بإنشاء هـــذا الدســـتور عونـــا صادقا على إحياء تعاليم الكتاب والسنة فى نفوس المسلمين، وقلوب المؤمنين . كما كانوا بهذا أيضا أدلاء على الخير ، أوفياء بحقوق الله والبشر ، علماء بحقـــوق الله قبل عباده . وحقوق العباد قبل بعضهم ، وبواجبات العباد نحو الله ، ونحو بعضـــهم عاملين على رعاية هذه الحقوق والواجبات بما يكفل أداءها أداء تستقيم به وتقـــوم عليه الصلات العملية فى حياة الأفراد والجماعات.

وقد أشار" القشيرى" إلى هذا كله إشارة أجملت المفصل من الأخـــلاق العمليـــة للصوفية فى قوله : (وبناء هذا الأمر وملاكه على : حفظ آداب الشريعة ، وصون اليد عن أن تمتد إلى الحرام والشبهة . وحفظ اليد عن المحظورات . وعد الأنفـــاس مع غير الله من الغفلات . وألا يستحل مثل سمسة فيها شبهة فى أوان الضـــرورات فكيف عند الاختيار - ووقت الراحات) .

التطبيقات العملية للمبادئ الأخلاقية للصوفية

عرفنا فيما سبق المبادئ العامة التى يتألف منها القانون الأخلاقى عند الصوفية،وهنا سننظر مع الصوفية فى الكيفية التى يطبق بها هذا القانون عمليا فى حياة المشايخ والمريدين ، فإن هذا التطبيق يبين فى جلاء الوسائل التى يقصد إليها المشايخ فى تهذيب المريدين .

فتوجيه المرشد للمريد وتأثيره فيه ، وإعماله إرادته فى نفسه وقلبه وعقله ، كل أولئك : هو قوام التصوف من الناحية العملية . كما أنه سبيل الباحث كى يتعرف العناصر التعليمية والعملية والنفسية والأخلاقية فى طريق الصوفية ، الذى غايته القصوى تحقيق الكمال .

وأول ما يلاحظ المتأمل فى طريق الصوفية ، وقد التف فيه طائفة من المريدين حول شيخ من المشايخ : أن هذا الشيخ إنما هو بمثابة المسيطر على نفوسهم،والمدبر لهذه النفوس على أوجه مختلفة من هذا التدبير ، الذى تطول مدته وتقصر بحسب استعداد المريدين وقبولهم لما يغرسه الشيخ فى نفوسهم من المبادىء الأخلاقية : ومهما يكن من تفاوت هذه المدة طولا وقصرا بتفاوت النفوس واختلاف فطرها . فإن " النويرى " يحدد هذه المدة فى الجملة بسنوات ثلاث . يستمر فيها خضوع المريد لشيخه ، وتلقيه العلم عنه ، وقبوله الإرشاد منه ، وفى كل سنة من هذه الثلاث يتبين نوع التدبير وتتضح الوسائل التى يصطنعها الشيخ فيها،وتغرس فى نفس المريد جملة الفضائل التى يجب أن يتحلى بها .

وبعبارة أخرى كما يقول صاحب كشف المحجوب : إن كل سنة من هذه السنوات الثلاث بمثابة المرحلة التى تعد لضرب من ضروب الخدمة . وذلك فى حدود الشروط التى تستلزمها الصحبة ، وتستتبعها ، الأخوة ، بحيث لا ينتقل المريد من مرحلة الى ما بعدها إلا بعد استيعابه كل ما يطالبه الشيخ به من المعارف ، وما يأمره بالخضوع له من المبادىء فى المرحلة السابقة .

والمريد هنا بين أمرين :- إما أن يقوم بما يتطلبه هذا النظام علما وعمــــلا على أتم وجه ، وإما أن يضيق به فيتخلف ، وينكص على عقبيــه ، وهنــا يتبيــن لشيخه مدى ما في نفسه من فتور الهمة ، وقصور العزيمة ، وأنه إمــــا أن يكــون مستعدا للتلقى ولكن على طريقة أخرى قد تكون أكثر ملاءمــــة لنفســه وطبيعتــها وحالها . وإما أنه ليس كذلك ، وأن أى محاولة فى تربيته وتصفيته لن تجدى معــه فينتهى أمره إلى أنه ليس أهلا للانخراط فى سلك مريديه .

ويقول صاحب كشف المحجوب : إن السنة الأولى تخصص لخدمة النــاس والثانية لخدمة الله . والثالثة لمراقبة المريد .

ولكل من هذه المراقبة ، وهاتين الخدمتين ، مبادؤها الأخلاقية التــى يخضــع الشيخ نفس مريده لها ، والتى لها فى نفس المريد آثار عمليــة فــى ســلوكه مــع أشباهه،ومع ربه.

فخدمة المريد للناس : تقوم على مبدأ قوامه : أن ينزل المريد نفسه منــــهم منزلة الخادم من السيد ، وأن ينظر إليهم جميعا على أنهم سواء ، وأنهم خير منــه وأعلى ، وأنه أقل منهم وأدنى . بحيث يتخذ فى خدمته من كل النــــاس موضوعــا لواجبه ، على وجه لا يعد فيه نفسه أسمى من الذين يقوم بخدمتهم . فإن ذلك مرض من أمراض النفس ، وآفة من آفات الزمان . **وخدمة المريد لله:** تقوم على مبــدأ قوامه: الخلاص من شوائب نفسه وعلائق حسه ، سواء ما كـــان منــها متصــلا بحظوظه وأغراضه فى الدنيا والآخرة .

وهذا معناه :- أن عبادة المريد لله ، يجب يبغى بها وجه الله لذاته . لا لــهوى أو غرض لأن من يعبد الله خوفا من شئ ، أو طمعا فى شئ ، أو ابتغاء حظ زائـل أو غرض حائل ، فهذا إنما يعبد نفسه لاربه .

وأما مراقبة قلب المريد التى تكون فى السنة الثالثة فهى: إنما تكـــون بجمع أفكاره وخطراته وتركيزها فى نقطة واحدة ، حتى إذا خلصت نفسه من كـــل

شوائبها وآفاتها وأهوائها، وأصبح المريد عارفا بالله ، محبا له ، متحققا بالأنس معه. كان قلبه بمأمن من الوقوع تحت طائلة الغواية والتهور .

والمريد فى خدمته لله والناس ومراقبة قلبه ، لابد له من شيخ يتتلمذ ويتأدب على يديه ، ويستعين به على التطبيقات العملية للقوانين والمبادئ الأخلاقية، التى وضعها الصوفية أساسا لطريقهم .

وعند الصوفية : إن مثل التلميذ الذى ليس له أستاذ يأخذ منه طريقه نفسا فنفسا ، كمثل الشجرة التى تنبت بنفسها . تورق لكن لا تثمر. ولكى تكون حياة المريد العلمية والعملية منتجة مثمرة . فإنه يجب عليه ألا يخالف شيخه ، ولا يعترض عليه ، فيما يشير به عليه ويوجهه إليه .

فلابد فى حياة المريد من شيخ فى سلوكه طريق الله ، وهو أكبر عون له على التحقيق الخلقى ، والتطبيق العملى ، لما يأخذ به الشيخ مريده من قوانين ومبادئ،هى بمثابة التطبيق العملى لما يأخذ . وبمثابة الضوابط التى ينضبط بها سلوك المريد فى خدمته لربه وأشباهه ومراقبة قلبه .

وإذا كان ذلك كذلك فقد أفرد الصوفية فى كتبهم ورسائلهم أبوابا لتوجيه المريدين ، بما ينبغى أن يسلكوا من طريق ، أو يعرفوا من واجبات فى هذا الطريق،وما ينبغى أن يؤخذوا به من تطبيق وتحقيق . فإذا وقفنا معهم عند المبادئ والواجبات التى يطالبون المريد بتحقيقها فى خدمته لأشباهه ولربه ، وجدنا لهم فى ذلك كلاما مستفيضا يكفى أن نذكر منه على سبيل المثال بعض ما يشتمل عليه من ضوابط السلوك وقواعد الأخلاق.

فخدمة الإنسان لأشباهه تقوم عندهم فى طرقهم العملية على المبادئ التالية:-

١- يجب على المريد أن يجتهد فى إرضاء الخصوم أولا .

٢- يجب على المريد أن يكون مع الناس دائما خصمهم على نفسه ، ولا يكون خصم نفسه عليهم .

٣- يجب على المريد أن يرى لكل واحد من الناس عليه حقا وواجبا . ولا يـرى لنفسه واجبا على أحد .

٤- يجب على المريد ألا يخالف ، وإن علم أن الحق معه سكت ، وأظهر الوفـاق لكل أحد .

٥- يجب على المريد أن يؤثر الناس جميعا على نفسـه ، فـإذا اتفـق لـه فـي جمع،وقوع جائع أو عريان قدمهما على نفسه .

٦- يجب على المريد أن يتتلمذ لكل من أظهره عليه الشيخ وإن كان هو أعلم منه.

٧- يجب على المريد إذا كانت طريقته خدمة الفقراء ، أن يصبر على جفاء القـوم معه بحيث لو زادوه جفاء لزادهم برا.

وخدمة الانسان لله تقوم عند الصوفية على المبادئ التالية :-

١- يجب على المريد أن يعرف ربه ، ثم يعمل على التقرب إليه بعد ذلك

٢- يجب على المريد أن يكون أول قدم له فى الطريق هو أن يكون مع الله علـى الصدق، حتى يكون البناء على أصل صحيح . والعناصر التى يتألف منها مبـدأ الصدق مع الله قد فصلها (الدقاق) فى قوله : (فيجب البداءة بتصحيح اعتقـاد بين المريد و بين الله صاف مـن الظنـون والشـبه ، خـال مـن الضـلال والبدع،صادر عن البراهين والحجج).

٣- يجب على المريد أن يكون مع الله على حفظ العهود ، لأن نقض العـهد فـي طريق الإرادة كالردة عن الدين لدى أهل الظاهر .

وأما فيما يتعلق بالمرحلة الثالثة: (مراقبة قلب المريد) فنضرب الأمثال ببعض ما تقوم عليه من مبادئ فيما يلى :-

١- يجب على المريد أن يتوب إلى الله من كل ذلة . فيدع جميـع الـذلات سـرها وجهرها . صغيرها وكبيرها.

٢- يجب على المريد أن يحذف العلائق والشواغل من قلبه ، وأولها المال الذى يميل به عن الحق . ثم الجاه الذى تعد ملاحظته مقطعة عظيمة وسهما قاتلا لأن المريد الصادق هو الذى يجتهد ليعرف ربه ،لا ليحصل لنفسه قدرا أوجاها.

٣- يجب عليه أن يحفظ سره حتى عن ذويه ، وألا يفض به إلا لشيخه ، لأن كتمانه نفسا من أنفاسه عن شيخه خيانة منه فى حق صحبته له .

٤- إذا خالف فى بعض ما أمره به الشيخ ، عليه أن يقر بمخالفته بين يدى شيخه فى وقته ، وأن يستسلم لما يحكم به الشيخ عليه من عقوبة على مخالفته .

٥- أن يتجرد من كل علاقة حتى يلقنه الشيخ ما يجب تلقينه من الأذكار . فإذا ظفر المريد من قلب الشيخ بشهادة على صحة عزمه ، فهناك يشترط الشيخ على المريد أن يرضى بما يستقبله فى هذه الطريقة من فنون تصاريف القضاء ، وألا يميل بقلبه إلى السهولة ، ولا يترخص عند هجوم الفاقات ، وحصول الضرورات ، ولا يؤثر الدعة والكسل .

٦- أن يكون أبدا فى الظاهر على الطهارة . ويقلل من غذائه على التدريج . وألا يكون نومه إلا غلبه .

٧- أن يؤثر الخلوة والعزلة . ليكون اجتهاده منصبا على نفى الخواطر الدنيئة والهواجس الشاغلة للقلب .

من كل هذه المبادئ الأخلاقية : تستمد الخصائص الأخلاقية للحياة الروحية الإسلامية ، بما فيها من رياضات ومجاهدات ، وبما تشرق به قلوب أصحابها من أنوار وأذواق . وليس من شك فى أن تلك الصلة بين المشايخ والمريدين ، وحياة المريدين معهم ، وخضوعهم للقواعد العلمية التى تفرضها المبادئ الأخلاقية السابقة ، من شأن هذا كله أن يوضح لنا ما فى التصوف الإسلامى من جدة وطرافة من الناحيتين الأخلاقية والاجتماعية بصفة عامة . كما يدلنا على أن المريد الصادق بصفة خاصة إنما هو : صورة صادقة للمواطن الصالح ، الذى طرح كل نقص

واتشح بكل كمال . فكان منه ومن أشباهه الدعائم المتينة الصالحة ، لأن يشيد عليها بناء الجماعة الفاضلة.

فأى شئ أفعل فى نفس المواطن ، وتكوينه تكوينا روحيا قويما ، من تلك الرياضات والمجاهدات ، وتطبيق مبادئها المستقيمة ، التى يخضع الشيخ نفس مريده لها ، ويعوده فى تهذيبه وتأديبه عليها ، فتتمرن نفسه على أسمى معانى الحب،والإخاء ، والود والصفاء والإيثار ، والوفاء ، والصبر ، والجهاد ، والتسامح والمداراة ، والتواضع، والمساواة ، واقتحام العقبات ، إلى غير ذلك من المعانى الجميلة التى إذا غرست بدورها فى قلوب الأفراد وعقولهم ، ونفذت على الوجه الذى يغذيها وينميها . فعلت من غير شك فعلها ، وآتت أكلها فى حياة الأمة ، التى تتألف من أفراد ، ليست حياتهم فى الحقيقة إلا حياة ذلك المريد الذى وصفه بعض الصوفية بقوله : (المريد لا يفتر آناء الليل وأطراف النهار ، هو فى الظاهر ببعث المجاهدات . وفى الباطن بوصف المكابدات . فارق الفراش ولزم الانكماش وتحمل المصاعب ، وركوب المتاعب ، وعالج الأخلاق ، ومارس المشاق ، وعانق الأهوال وفارق الأتكال) .

وأى شئ أجمل وأروع مما فى الحياة الصوفية الروحية والعملية من فهم معنى الفتى والفتوة ، وما يشبه هذا من ناحية . وفيما بينهم وبين أشباههم من ناحية ثانية،وفيما بينهم وبين ربهم من ناحية ثالثة . فالفتى على الحقيقة هو كما تفهم الصوفية : من خالف هواه . وترك ما يهواه إلى ما يخشاه . وأنصف ولم ينتصف . ولم يكن خصما لأحد . والفتوة كما يحدد " الهروى " معانيها وعناصرها ومراتبها هى : ترك الخصومة ، والتغافل عن الزلة . ونسيان الأذية ، وأن يقرب الإنسان بكل قلبه على ربه ، فيبذل له كل حب ، احتسابا له لا خوفا من عقابه ، ولا طمعا فى ثوابه .

والحق الذى لاشبهه فيه : هو أن المعانى التى ينطوى عليها هنا معنى كل من الفتى والفتوة . مضافة إلى ما ذكر هناك من المبادئ التى يشتمل عليها معنى المريد ، وعلاقته بالشيخ ، وتقويم سلوكه على يدى هذا الشيخ . كل أولئك شواهد

صدق ، بأن طرق الصوفية فى الرياضة والتصفية . ووســـــائلهم فـــى المجـــاهدة والتنقية. جديرة بأن تكون المواطنين الصالحين فى الحياة الإنسانية العامة بقدر مـــا هى قادرة على أن تخلق المريدين الصادقين فى الحياة الروحية الخاصة . فإن المثل الأعلى الذى يتحقق فى حياة المريدين والفتيان ، فيجعل من كل منهم أسمى إنسان . هو بعينه المثل الأعلى الذى يتحقق فى حياة الأمة فيجعل منها أقوى بنيان .

الخصائص النفسية للرياضات والأذواق الصوفية

النفس الإنسانية بين الرياضة والذوق :-

والمتأمل فى حياة الصوفية ، ومذاهبهم ، وفيما عبروا عنهما ، يلاحظ أن النفس الإنسانية هى المحور الرئيسى الذى تدور عليه رياضاتهم ومجهداتهم وأذواقهم ومواجيدهم . فالتصوف من هذه الناحية ما هو إلا رياضة للنفس ، ومجاهدة للحس وتنقية للقلب ، وهو وجد وذوق وفناء عن الإنية ، وبقاء فى الذات العلية، واتصال بالمنبع الإلهى الأزلى الأسمى ، الذى يفيض على الكون كل ما فيه من آيات الحق والخير والجمال .

ويمكن أن يقال بعبارة أخرى : إن حياة الصوفية ومذاهبهم تنطوى على معنين أساسين هما :-

١- معنى عملى: يقوم على ما يأخذ به الصوفي نفسه من رياضات ومجاهدات،وإن هذا المعنى العملى هو الطريق إلى المقامات التى ترتقى فيها النفس حتى تصل الى درجة اليقين والعرفان .

٢- ومعنى ذوقى روحى يحصل فى النفس نتيجة لرياضاتها ومجا هداتها. حتى إذا خلصت من شوائبها ، وصفت من أكدارها ، وتحولت آخر الأمر إلى روح لطيفة . عادت إلى ما كانت عليه من صفاء . ونقاء . قبل أن تهبط إلى العالم السفلى بما فيه من كون وفساد . وآية هذا المعنى الذوقى الروحى ما يعرض لنفس الصوفى من أحوال ، ترد عليها حينا ثم تتحول عنها حينا آخر. وما تزال كذلك حتى يستقر فيها أخيرا حال يغلب عليها . بحيث لا يصدر الإنسان فى قوله أوفعله إلا عن هذا الحال ، وبحيث لا يمكن فهم الحياة النفسية أو تفسير عناصرها العاطفية والعقلية والإرادية إلا به . هذان المعنيان هما الدعامة الأساسية التى تقوم عليها كل حياة صوفية . ولا يخلو عن أحدهما أو كليهما أى مذهب من مذاهب التصوف . وأى دين من الأديان .

وما تركه الصوفية من آثار ، سواء ما كتبه الصوفية أنفسهم ، أو ما كتبه عنهم من ترجم لهم ، وصور حياتهم ، ووصف أحوالهم ، من كتاب التراجم والطبقات يتبين لنا: أنه ليس هناك مذهب صوفى إلا ويمكن أن يعتبر على وجه ، ما ثمره لما خضع له صاحبه من رياضات ومجاهدات ، وما اختلف على النفس من أحوال ومقامات ، وما وصل إليه من مكاشفات ومشاهدات ، تلك التى يعبر عنها كل من وصل إليها تعبيرا يتفاوت بتفاوت الجهد الذى يبذل ، والكمال الذى حصل . وقد يكون هذا التعبير شعرا أو نثرا ، ولكنه يعتبر من العناصر الخلقية العملية،والوجدانية النفسية ، التى تتألف منها الحياة الروحية للسالك ، الذى يريد أن يتحقق بكمال العلم والعمل . وأن يحقق المثل الأعلى فى الحياة الدينية فى أرقى صورها .

فمن أراد أن يدرس التصوف دراسة عملية ، لابد له أن يقف مع الصوفية عند رياضاتهم ، ومجاهداتم ، وأذواقهم ، ومواجيدهم . ويلم بالآثار التى وصفوا بها أحوالهم أو ترجمها لهم من ترجم لحياتهم . وأن يفهم هذا كله فى ضوء ما ذكروه عن النفس الإنسانية من حيث حقيقتها . وصفاتها . وآفاتها وخواطرها . وصلتها بالبدن . وتأثرها به ومفارقتها له ، إلى غير ذلك مما يتصل بالنفس من قريب أوبعيد . وما من شأنه أن نتبين منه إلى أى حد يمكن أن تكون الدراسة النفسية أداة صالحة لفهم الرياضات والأذواق الصوفية . وعونا صادقا على تعرف الحقائق الإلهية ، التى انكشفت لبواطنهم من أحوالهم .

والباحث فى التصوف الاسلامى سيجد من هذا كله ما يوصله الى خير النتائج بحيث يحكم على التراث النفسى الذى تركه الصوفية المسلمون على تعاقب العصور بأنه جليل الشأن . عظيم الخطر . خصوصا ما يتعلق بتحليل النفس الإنسانية،والكشف عن قواها وأحوالها وأعراضها وطرق علاجها .

تتضح الخصائص النفسية للتصوف الإسلامى فى ناحيتين :

(١) فيما وقع له من تطور تاريخى من ناحية .

(٢) وفيما تفرع عليه من العلوم الجزئية ، التى يعنى كل منها بناحية خاصة من نواحيه ، أو يعرض لموضوع معين من موضوعاته من ناحية أخرى .

ويتضح هذا : إذا لاحظنا أن التصوف الاسلامى من حيث نشأته وتطوره وتكوينه العلمى ، قد أتى عليه حين من الدهر أصبح فيه علما لبواطن القلوب ، يتناول الأحكام والعبادات الشرعية ، من ناحية معانيها الروحية ، وآثارها فى القلوب ، ويقابل علم الفقه الذى يعنى بظاهر الأحكام ويسمى بعلم الظاهر .

والتصوف فى هذا الطور :- قد سمى بأسماء كثيرة تدل كلها على مدى ما أتسم به من سمات نفسية . وعلى قيمة العناصر التى تألف منها . (فهو تارة علم القلوب . وأخرى علم الأسرار . وحينا علم الأحوال والمقامات . وحينا آخر علم السلوك).

وهذه الاسماء إن دلت فإنما تدل على أن التصوف فى القرنين (الثالث والرابع الهجريين) قد عنى عناية خاصة بالنفس الإنسانية واصطبغ بالصبغة النفسية .

وان كان قد عنى بالناحية الأخلاقية ، وأصطبغ بالصبغة العملية فى السلوك ،إلا أن عنايته بالناحية النفسية كان فيه أظهر وعليه أغلب .

ومع أن الصوفية الذين عاشوا فى هذين القرنين قد تركوا لنا أثارا لها قيمتها من الناحية الأخلاقية ، التى وجهوا أكثر جهودهم إليها إلا أنهم قد أقاموا قواعدهم فى تهذيب النفس وما ينبغى أن تتحلى به ، وتتخلى عنه ، على أساس من محاسبة النفس ومراقبتها.

والمحاسبة والمراقبة :- عمليتان نفسيتان فيهما تعود النفس إلى نفسها . وتقيم على نفسها رقيبا من نفسها وربها . فتستكشف ما يجرى فى باطنها من أفكار وما يرد عليها من خواطر ، وتستطيع النفس بالمحاسبة والمراقبة أن تلم بنفسها

إلماما يمكنها من التمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل ، فتعرف الحق والخير وتقبل عليهما ، وتعرف الشر والباطل فتنصرف عنهما .

على أن عناية الصوفية والتصوف الاسلامى فى القرنين (٣،٤) هـــ بقواعـد السلوك وقواعد الأخلاق العملية قد جعلت (الشيخ مصطفى عبد الـــرازق) يعـد التصوف فى ذلك الحين فى أول عهده بالتكون العلمى : علما للأخـــلاق الدينيـة الإسلامية ومعانى العبادة. مستدلا بقول" ابن القيم " فـــى(مـدارج الســالكين) : واجتمعت كلمة الناطقين فى هذا العلم على أن التصوف هو الخلق . وبقوله أيضا : إن هذا العلم مبنى على الإرادة فهى أساسه ومجمع بنائه ، وهو يشتمل على تفاصيل أحكام الإرادة .

وبقول " الكتانى " : التصوف هو الخلق . فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليـك فى الصفاء. وبقول من قال : علم السلوك هو معرفة النفس ما لها وما عليها مـــن الوجدانيات . ويسمى بعلم الأخلاق وعلم التصوف .

فلو أننا ناقشنا هذه النصوص لوجدناها تنطوى على كثير من المعانى النفســية ،على الرغم مما يدل عليه كل منها من منازع أخلاقية .

(١) فالقول بأن التصوف هو الخلق :-- يجعل مـــن التصـــوف علمـــا للأخلاق . ولكنه مع ذلك أشد ما يكون حاجة الى معرفة النفس ، التى تصـــدر عنها هذه الأخلاق . وذلك : لأن الســـواد الأعظـــم مـــن فلاســـفة المســـلمين وصوفيتهم قد عرفوا الخلق بأنه: هيئة النفس راسخة إن صدرت عنها الأفعـــال الجميلة عقلا وشرعا بسهولة سميت خلقا حسنا. وإن صدرت عنـــها الأفعـــال القبيحة سميت خلقا سيئا .

وهذا يعنى : أن التصوف بما هو علم للأخلاق ، ينبغى أن يكون كذلك بـــل قبل ذلك علما للنفس .

(٢) والقول بأن التصوف مبنى على الإرادة : قـــد يكـــون أدل علـــى العنصر النفسى فى التصوف الإسلامى . فالإرادة التى هى آلة الإنسان فـــى إيراد أفعاله وتنفيذها على وجه يتفق مع قواعد الأخلاق فى أو ينافيها ، هـــى

من موضوعات علم النفس . ولا يمكن أن توضع القواعد الأخلاقية وضعـاً سليما ملائما لطبيعة النفس الإنسـانية ، دون أن تفـهم الارادة ، وتفسـير طبيعتها وأحوالها ، والدوافع التى تدفعها من الناحية النفسية . ولعل فى قـول " ابن القيم " نفسه (ولهذا سمى علم الباطن لاشتماله على تفـاصيل أحكـام الإرادة وهى حركة القلب) ما يدل دلالة واضحة على أن التصوف إنما كان علما للنفس التى لها هذه الإرادة التى تعمل عملها فى باطنها ميولا ورغبـات ومرادات . وتؤتى أكلها فى ظاهرها أفعالا محمودة أو مرذولة ، بمقدار مـا تنطوى عليه الميول ، والرغبات ، والمرادات من معـانى الخـير والشـر والفضيلة والرذيلة. وإذا تدبرنا قول من قال علم السلوك هو معرفة النفـس ما لها وما عليها من الوجدانيات ، وعرفنا أن الوجدانيـات هـى الأخـلاق الباطنة ، والملكات النفسية ، وأنها من قبيل ما يدرك بالحواس الباطنة تبينا أن التصوف على هذا الوجه الذى يتخذ من معرفـة النفـس ووجدانياتـها موضوعا له . قد اصطنع منهجا نفسيا فى معرفة النفس ، والكشف عما لـها وما عليها من الوجدانيات .

<u>وننتهى من هذا كله :</u> إلى أن التصوف الإسلامى من حيث هو علم لبواطن القلوب لم يكن علما للأخلاق الدينية فحسب ، وإنما كان كذلـك علمـا للنفـس الإنسـانية وللمنازع الميتافيزيقية التى تنزع إليها ، وتعبر من خلالها عما فقدت من ذاتها ،وما وجدت من ذات الله تعالى وقد فنيت فيها .

وإذا سايرنا التصوف الإسلامى فى تطوره ، حتى وصلنا معه الى ما بعد القرنيـن الأول والثانى الهجريين ، لوجدنا موضوعاته وقتئذ فياضة بالمعانى النفسية . وهـذا المنهج قد أعانهم على الكشف عن أسرار النفس ودقائقها من ناحية . وعلى تـذوق الحقيقة العلية والدخول فى ملكوتها من ناحية أخرى .

١- فالمجاهدات والأذواق والموا جيد ومحاسبة النفس على الأعمال لتحصل تلـك الأذواق التى تصير مقاما يترقى منه الإنسان إلى غيره .

٢- والكشف وما يدور فيه من كلام عن الحقيقة المدركة من عالم الغيب كالصفات ، وما ينكشف عن الصوفية فى حال الكشف من حجاب الحس فيطلعوا على عوالم من أمر الله .

٣- والشطحات وما فيها من ألفاظ مستشنعة فى ظاهرها ، وما تعبر عنه من أحوال أصحابها كل أولئك شواهد صدق ، وأدلة حق على أن التصوف الإسلامى قد بلغ فى هذا الطور مبلغا من التنظيم العلمى والبحث النفسى كان له الأثر فى الكشف عن الكثير من الحقائق التى خفت ودقت لو لم يهتم لها من عنى بها من الصوفية ، ومن شراحهم الذين شربوا من كأسهم .

العناصر النفسية فى التصوف العلمى

عرفنا أن للتصوف عنصرين رئيسيين هما :-

١- **عملى** قوامه ما يأخذ به العبد نفسه من مجاهدات ، وما يتقلب فيه من مقامات .

٢- **وروحى** وقوامه ما يختلف على نفس العبد من أذواق وأحوال ، هى سبيله إلى الكشف والمشاهدة والاتصال .

وقد نظر الصوفية إلى العنصر العملى على أنه بمثابة التمهيد الذى يهئ نفس السالك للحياة الروحية الحقة ، و يتلقى ما يخصها الله به من إلهامات وإشرا قات .

فالحياة الروحية الحقة وما فيها من أذواق ومواجيد ، وما يتجلى فيها من الحقائق، هى عند الصوفية ثمرة من ثمرات المجاهدات والرياضات التى يعبرون عنها(بالأعمال) واذا كان التصوف باعتباره علما لبواطن القلوب،وقواعد السلوك ، هو الذى يمكن للواقف عليه سبيل الحياة الروحية سواء فيما بينه وبين نفسه،أوفيما بينه وبين ربه ، فإننا نستطيع أن نقول مع "أبى بكر الكلاباذى " (أن العلوم الصوفية علوم الأحوال . والأحوال مواريث الأعمال).

وقد عدد الكلاباذى طائفة كالفقه . وأصوله وعلم التوحيد . والمعرفة عن طريق الكتاب والسنة . وما أجمع السلف الصالح عليه . ومنها علوم تجمع بين الصفتين

النفسية والأخلاقية . وهى التى تعنينا فيما نحن بصدد بيانه من العناصر النفسية فى التصوف الإسلامى . فأول ما يلزم الإنسان من هذه العلوم الأخيرة لكى يصحح أعماله : (علم آفات النفس ومعرفتها ورياضتها وتهذيب أخلاقها ومكان العدو (النفس والشيطان) . فإذا استقامة النفس على الواجب ، وصلحت طباعها ، وتأدبت بآداب الله عز وجل من ذم جوارحها ، وحفظ أطرافها . سهل على العبد إصلاح أخلاقها وتطهير الظاهر منها ، والفراغ مما لها ، وعزوفها عن الدنيا . فعند ذلك يمكنه مراقبة الخواطر وتطهير السرائر وهذا هو علم المعرفة .

ووراء هذا العلم : علوم الخواطر والمشاهدات والمكاشفات وهى التى تختص بعلم الإشارة . وهو العلم الذى تفردت به الصوفية بعد جمعها سائر العلوم السابقة وهنا يتبين: أن لدى الصوفية علم يبحث فى آفات النفس ومعرفتها ورياضتها وهو علم الحكمة .

وعلم يمكن العبد من مراقبة الخواطر وتطهير السرائر وهو علم المعرفة،وعلوم أخرى خاصة بالخواطر والمشاهدات والمكاشفات .

وكلها علوم لا يمكن إنكار ما تقوم عليه من الأسس النفسية ، وما ترمى إليه من تحليل النفس الانسانية ، وما يتعلق بها من الأمور التى لها صلة وثيقة بعلم التصوف الذى أخص خصائصه أن يعبر عنه أصحابه بالإشارة دون العبارة ويعتمدون فى تصوير ما انكشف لسرائرهم على التلويح دون التصريح . وذلك : لأن مشاهدات القلوب ، ومكاشفات الأسرار ، لا يمكن العبارة عنها على التحقيق وإنما تعلم بالمنازلات والموا جيد ولا يعرفها إلا من حل تلك المقامات ونازل تلك الموا جيد .

فآخر ما تمتاز به الرياضات والمجاهدات والأذواق والموا جيد الصوفية ، هو تلك الصفة النفسية التى لا تنفك عن أى من الصوفية المتحققين ، ولا عن أى أثر من آثارهم التى يترجمون فيها عن حياتهم الروحية ، ويصورون فيها أحوالهم تصويرا قد يخرج عند بعضهم عن حد المألوف ، حتى يخيل الى من ليس منهم أنه

ضرب من الوهم أو الخيال . وأنه يدل على فساد مزاج صاحبه وما يعانيه من أمراض نفسية أو عقلية أو عضوية .

ومن هنا : كانت الحملة التى حملها فريق من علماء النفس والفلاسفة والنقاد القدماء والمحدثون على أحوال الصوفية وآثارهم ، وأنكروا قيمتها إذا قيست بقيمة الآثار العلمية القائمة على المشاهدة والتجربة الحسية ، والآثار الفلسفية المؤسسة على الأدلة العقلية والمنطقية .

ولا يعنينا هنا أن ندخل فى تفاصيل هذا النقد . وإنما الذى يعنينا الآن أن نلاحظ أن التصوف الاسلامى حافل بالعناصر النفسية ، التى بلغت من الكثرة التى أفاض الصوفية فى الإبانة عنها ، وعن خصائصها الذاتية إلى الحد الذى يمكن معه أن نستخلص هذه العناصر النفسية من ثنايا المؤلفات الصوفية ، ونؤلف بينها تأليفا من شأنه أن يجعل من التصوف علما للنفس الانسانية . ومن الصوفية علماء لهذه النفس ونذكر هنا على سبيل المثال طائفة من المسائل التى تناولها الصوفية المسلمون فى كتبهم ، ولها صلات قريبة أو بعيدة بالنفس ، والتى تدل على الصبغة الذاتية التى لها خطرها عند تكوين الحياة الصوفية .

فالتوبة : وحقيقتها وما يتصل بها من ندم على ما فات ، وخوف مما هو آت .

والورع : وأحوال الورعين . والتوكل وطبقات المتوكلين . والرضا ومقامات الراضين . والصبر ودرجات الصابرين . كل أولئك وكثير غيره مقامات تناولها الصوفية ، وبينوا صلتها بالنفس وأثرها فيها .والغيبة والحضور والسكر والمحو والإثبات والذوق والشرب والمحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والخشية والخشوع والمحبة والشوق والأنس والفناء والبقاء والوجد والصفات الوجدانية ،وقوة سلطان الوجد ، والسكون والحركة فى حال الوجد .

كل أولئك : أحوال للصوفية تختلف على نفوسهم ، ولهم فيها ضروب من المراقبة وألوان من الإرادة ، ودرجات من القوة والضعف متباينة . لا يسمح المقلم هنا بتناولها بتفاصيلها .

والنفس والعقل والروح والقلب والسر وما هية كل منها . والخواطر والعلائق والعوائق.والشهوات والنزوات . كل أولئك مسائل قام الصوفية بحل ما أشكل منها وتفصيل ما أجمل . وهم فى هذا كله يقدمون لنا معلومات قيمة عن خبايا النفس وخفايا القلوب على وجه لا يستطيعه غيرهم ، لأنهم يدركون هذه الصور ويحللونها الى عناصرها ، لا عن علم يتلقونه عن غيرهم . بل عن علم يستمدونه من أعماق نفوسهم ويستمدون عناصره من تصفح قلوبهم .

وهم من هذه الناحية : إذا وصفوا النفس وحللوها ، فإنما يصفون عن ذوق وتجربة ، ومكابدة وبينة .

ولعل من المفيد هنا أن نتناول مثالا لهؤلاء الصوفية حل تلك المقامات ، ونازل تلك المواجيد . إنه مثال سار على نهجه الصوفية فابتكروا وأفاضوا من تجارب علمهم على من أتى بعدهم . وأقصد بهذا المثال (رابعة العدوية) هذا ما سنجده بعون الله فى الصفحات التالية .

الفصل الخامس

مكان رابعة فى الصوف الإسلامى

- رابعة العدوية من الزهد إلى المحبة
- مولد رابعة ونشأتها
- أسرتها والخلط بينها وبين غيرها
- رابعة العذراء
- المنهج الروحى لرابعة
- المقامات والأحوال الصوفية لرابعة
- الحب وصوره عند رابعة
- الفناء الكامل فى الله معراج رابعة
- وفاة رابعة العدوية
- مكان رابعة فى التصوف الإسلامى

رابعة العدوية

من الزهد الى المحبة :

حان الآن موعد حديثنا عن رابعة وهنا نتساءل: ولكن إذا كانت الحياة الروحية فى الإسلام ليست تيارا يجرى مع غيره من التيارات العقلية والقلبية فى نهر الحياة الإسلامية ، بل هى أصل أصيل وقوة تكمن وراء كل عمل وغاية ، فلماذا أتسم المتصوفة وحدهم بسماتها ؟ .

ولكى نجيب عن ذلك يجدر بنا أن نشير إلى أننا وقد تناولنا الحسن البصرى بشىء من التفصيل إلا أنه من المفيد هنا أن نوضح أنه كان بداية الرسالة التى دنت أنوارها فكشفت عن رابعة . ولذا تقول دائرة المعارف الإسلامية وهى تعرض لحياة "الحسن البصرى".

"وللحسن فضل لا يمحى فى نمو التصوف ، نشأ من ورعه وتقشفه اللذين كانا يتجليان أكثر وأكثر اذا قورن بغيره من أهل عصره . ذلك أن الحرص على متاع الدنيا بدأ يغزو طبقات المجتمع الاسلامى .

ونحن نستطيع من هذه الكلمات القليلة أن نأخذ الجواب لمن يريد الحق .

فالقرن الأول للهجرة وقد عاش الحسن البصرى فى أواخره – ما كادت شمسه تغرب حتى كانت أخصب بقاع الدنيا فى قبضة العالم الاسلامى ، تلك الدنيا التى حذرهم الرسول من سحرها و أنه لا يخشى عليهم إلا من فتنتها . ولم يحفظ كثير من المسلمين وصية نبيهم ، فوقعوا فرائس سهلة فى قبضة الترف . حقا لقد بدأ الحرص على متاع الدنيا فى ذلك الوقت يغزو جميع طبقات المجتمع الإسلامى .

غير أن هناك طائفة تميزت عن هذا المحيط العام ، وهى طائفة الزهاد الذين اعتصموا من فتنة الدنيا بربهم ، ولم يمدوا أبصارهم إلى بريق الشهوات وأضوائها.

وبذلك كان الزهد هو السمة الأولى التى تميزت بها تلك القلة . وكان على رأس هؤلاء الرجال فى القرن الأول " الحسن البصرى " .

غير أن الزهد وان كان جزئية من جزئيات الحياة الروحية الاسلامية ، الا أنـــه ليس هدفها الأكبر ، بل هو من وسائلها . انه انطواء وانكماش مؤقتان فى ســاحات الحياة .

أما الحياة الروحية الكاملة فهى انطلاق من آفاق المعرفة ، وقوة تدفع إلى العمل الخالد ، وإشراقة إيمانية عامرة بالفيض والإلهام ، وفناء فى المثل الأعلى .

ولذا فمن الخطأ أن نجعل من الحسن البصـــرى رأســا لمدرســة المتصوفــة الروحانيين فحسب .

لقد كان الحسن زاهدا متقشفا . وواعظا لسنا بليغا ، يحذر الناس من النـــار ذات الوقود ، ويرغبهم فى الجنة ذات الولدان والحور . وينذرهم بطشة الغضب الكـبرى من رب الأرباب . وفى هذا المحيط ظلت مدرسة الوعظ والزهد نابضـــة بالحيـاة طول حياته . حقا لقد كان الحسن البصرى بداية الرسالة التى دنت أنوارها . بينمـا كانت الحياة الإسلامية تندفع فى قوة خاطفة إلى الماديات المجـــردة ، والدراســات الفلسفية والجدلية المفقدة ، مما جعل كثيرا من المسلمين يفقدون شيئا فشـــيئا تلــك الحياة الروحية ، العالية التى انبثقت من قرآنهم .

وكان لابد من نذير وبشير يصيح فيهم ويدعوهم . ولم يكن الزهد التى تعشـــقه الحسن . ولا الجدل الذى تعبد فى محرابه واصل بن عطاء ولا الفقه الذى ابتدأت مدارسه تتكون فى المدينة والكوفة . لم يكن كل هذا الصيحـــة المنشـــودة . ولكــن الصيحة قد أتت من حيث لا يترقب العالم الاسلامى . انها لم تأت من إمـــام أئمـة الفقه . باستثناء الإمام الأعظم " أبى حنيفة النعمان " إذ قال فى هذا الشأن (اللـــهم اشهد أنى لا أعبدك خوفا من نارك ، ولا طمعا فى جنتك ، ولكن لوجـــهك الكريـم فحسب) . ولا من واعظ من فصحاء العراق والشام . وإنما جـــاءت مـــن امـــرأة أنجبها الإسلام فحملت فى يمينها كلمة واحدة هى (محبة الله). ولم تحدث أى كلمة فى الوجود بعد كلمة التوحيد دويا مثلما أحدثت تلك الكلمة ، التى هتفت بها رابعـــة ففتحت بها آفاق المعارف الصوفية جميعها .

حقا : إن هده الكلمة الساحرة لم تكن جديدة على المسلمين ، فكتاب الله هـــاتف بها وحياة الرسول صورة لها . وأقواله أساس من أسسها ، حيث يصـــف صـــهيب الصحابى الناسك بهذه العبارة : (نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لـــم يعصـــه) وروحانية الإسلام مستمدة منها .

إلا أن دور رابعة فيها هو إبرازها وتذكير الناس بألحانها . وذلك لأن حياتـــها كلها كانت تدور حولها ، ورسالتها كانت تقوم عليها . فشاهد الناس بذلـــك جديـــدا قديما . رأى المسلمون فى دهشة عوالم نورانية تظهر فجأة عامرة بالخير والالـــهام فياضة باليقين ، داعية الى أرقى ما يدعو إليه المؤمنون المخلصون .

ولا جدال فى أن تلك الكلمة (المحبة) هى رسالة التصوف . ومنـــها وعليـــها قامت أكبر رسالة روحية عرفها العالم .

" تقول دائرة المعارف الإسلامية جـــ ١١ م ٩ : ونخلص من هذا إلى أن رابعة تختلف عن متقدمى الصوفية ، الذين كانوا مجرد زهاد ونساك . ذلك انـــها كـــانت صوفية بحق ، يدفعها حب قوى دفاق ، كما كانت من طلائع الصوفية الذين قـــالوا بالحب الخالص . الحب الذى لا تقيده رغبة سوى حب الله وحـــده . وكـــانت مـــن طلائعهم أيضا فى جعل الحب مصدر الإلهام والكشف) .

يقول صاحب كتاب " ابن الفارض والحب الإلهى " : لقد جعلت رابعة محبة الله سر الحياة وهدفها الأعلى . ومن محبة الله تنبثق محبة كل ما فى الوجود . وهـــذا الحب الذى يربط قلب العبد بخالقه هو سر المعارف الصوفية ، وهو أيضـــا ســـر المقاما ت والأحوال جميعها .

هتف رجل من العباد فى مجلس رابعة اللهم ارض عنى قالت رابعة : لـــو رضيت عنه لرضى عنك. قال : وكيف أرضى عن الله ؟ قالت : يوم تسر بالنقمـــة سرورك بالنعمة لأن كليهما من عند الله . **والخلاصة :** أن الرسالة التى أنجبت أئمة التصوف الإسلامى ، وأخرجت للدنيا أكبر أستاذة الروحانية الإسلامية وهى رســالة المحبة ، تعتبر رابعة من أوائل المؤسسين لها فى الإسلام . وكل من اقتفى أثرهـــا

وسار على نهجها لم يأت بجديد . إذا نظرنا إلى الجوهر . حتى ابن الفارض شيخ العشاق وإمام المحبين فى عالم الأشواق والموا جيد لم يزد عما قالته رابعة .

وذو النون المصرى أستاذ من تحدث عن الحب والمعرفة تقول عنه دائرة المعارف الإسلامية " : والمتأمل فيما أثر عن ذى النون من أقوال منشورة وقصائد منظومة . يلاحظ أنه يصطنع لفظتى الحب والمحبة اصطناعا صريحا سواء فى تعبيره عن إقبال الله على العبد ، أو إقبال العبد على الله . وأنه باستعماله الحب بنوع خاص إنما يشارك رابعة العدوية التى تعد من أوائل من استعمل هذه اللفظة استعمالا صريحا فيما كانت تناجى به ربها . أو فيما كانت تتحدث به عن علاقتها به . وإقبالها عليه وايثارها له ".

ويقول العلامة "ما سنيون " إنها تركت فى الإسلام أريجا من الحب وعطرا من الولاية لن يتبخرا ولن يزولا " ويقول المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق: " إن رابعة تعد أول من تغنت بنغمات الحب الالهى فى رياض الصوفية " تلك هى رابعة فمن هى؟

مولد رابعة ونشأتها

(١) ظروف مولدها :

فى مستهل القرن الثامن للهجرة ، كان العراق قلب الانسانية النابض بالفكر والحياة . وخاصة البصرة تلك المدينة أنشأها الإسلام لتكون رفدا للفاتحين ، وملجأ للعلماء والمفكرين . ثم تسرب إليها ترف الأكاسرة فغدت مدينة مترفة ناعمة .

ونستدل على قولنا هذا بقول سهل بن عبد الله التسترى : لما دخلت مدينة البصرة وجدت فيها أربعة آلاف يتكلمون فى المعرفة . ويقول ياقوت فى معجمه : إنها كانت تطوى تحت أجنحتها مئات من دور العزف والغناء واللهو الناعم . حقا إنها لحياة عجيبة . حياة تذهب بين الإيمان والمعرفة وللهو والترف . وعلى ضفاف هذه الحياة عاشت جماهير من الفقراء تخلت عنهم الحياة . جماهير من العرب

والفرس والروم والزنوج ، مزج بينهم الإسلام فأنساهم حمية النسب ، واتجه بـــهم إلى عصبية الرسالة .

ومن بين هذه المئات من الأكواخ التى تناثرت فى أطراف البصرة ، حيث يقطن الفقراء. كان كوخ صغير متواضع عرفه البصريون باسم (كوخ العابد) . وكـــان صاحب هذا الكوخ رجلا حرمته الحياة كل متاع الدنيا . ولكنها عوضته عن ذلـــك بالايمان والرضا والعبادة المتواصلة حتى لقب بالعابد . وهذا الكوخ المتواضع كـان يلتقى فى كل عام طفلة جميلة تنتزع الدموع من عيون الأم التى لا ترى فى الوافـد الجديد إلا عبئا جديدا. وتبعث الابتسام فى وجه الأب العابد الذى لا يرى فى الوجـه الجديد إلا نعمة وخيرا .

وامتلأ الكون بالحركة من جديد . فالكوخ يترقب مع الفجر وافدا جديدا من عالم الغيب . يقول المؤرخ الصوفى الكبير فريد الدين العطار فى تذكرة الأولياء :

" وفى الليلة التى أتت فيها رابعة العدوية إلى الدنيا ، لم يكن فى بيت أهلـــها شئ مما يصلح للوليد عند ولادته . فقد كان أبوها فقيرا ، حتى أنه لم يكـــن ثمـــة مصباح نور . ولا نقطة سمن للخلاص ، ولا قطعة من قماش يلف بها المولـود . وكان له ثلاث بنات فسميت رابعة لأنها رابعتهن .

وكان الأب الصالح قد عاهد الله ألا يطلب من عبد من عباده شيئا ، ولكنه ذهب استجابة لضراعة زوجته وشفقته على وليدته ذهب بطرق أبواب جيرته يتلمس منهم العون ، ولكن الأبواب صمتت فلم يستجيب له أحد من ورائها . ورجع الأب حزينا أسفا. وبكت الزوجة . وأقبل الأب على صلاته وتسبيحه فأخذه النوم . فرأى النبـــى صلوات الله وسلامه عليه فى منامه . فقال له النبى : لا تحزن فهذه الوليدة ســـيدة جليلة وان سبعين من أمتى ليرجون شفاعتها . ثم أمره صلوات الله عليه بالتوجــــه الى "عيسى زادان" أمير البصرة وأن يكتب له رقعة يخبره فيها أن النبى زاره فـــى المنام وأمره أن يذهب إليه وأن يقول له : إنك تصلى مائة ركعة كل ليلة وفى ليلـــة الجمعة أربعمائة . ولكنك فى الجمعة الأخيرة نسيت ألا فلتدفـــع أربعمائـــة دينـــار لصاحب هذه الرقعة كفارة عن هذا النسيان . وفى الصباح كتب والد رابعة الرسـالة

التى أمر بكتابتها ، وأرسلها عن طريق الحاجب إلى الأمير . فلما قرأها الأمير أمر بإعطائه أربعمائة دينار فورا وإحضاره اليه. ثم راجع نفسه فى الحال وقال : بل أنا أذهب إليه إجلا لا لمن أرسله ، وسأتولى بنفسى العناية بابنته الجليلة القدر ".

ومما هو جدير بالذكر هنا: أن العطار أوسع من أرخ لرابعة . كما أن له نـــهجا خاصا مشبوب العاطفة ، ملئ بالكرمات والعجائب فى تأريخه للمتصوفة . وإذا كان الأمر كذلك فإن روايته تلك التى ربط فيها بين رابعة والكرامة منذ مولدها لاتعدوأن تكون فى نظرنا إلا أقصوصة نسجت حول رابعة . ولكن الحقيقـــة الواضحـــة أن رابعة ولدت فى أسرة صالحة فقيرة ، لم تنجب ذكورا ، وأنها سميت رابعة لأنـــها كانت رابعة أربع فى أسرتها .

ونحن إذا سرنا مع العطار فى سلسلة حديثه فى (تذكرة الأولياء) نجـــده لـــم يتعرض لأسرة رابعة بالتفصيل فلم يحدثنا عن نسب هذه الأسرة . ولم يذكـــر لنـــا حتى اسم أبيها .

أسرة رابعة والخلط بينها وبين غيرها :

ومما هو جدير بالتسجيل هنا ونحن نتكلم عـــن أســـرة رابعـــة أن تقـــول : إن الروايات قد اختلفت اختلافا كبيرا فى نسب رابعة وأسرتها . ومشى هذا الاختـــلاف مع التاريخ حتى غدا بلبلة عجيبة . وليس أدل على ذلك من أن الروايات التاريخيـــة راحت تمزج بين رابعة وبين مسميات أخر لها ، وينسبن اليها بحكم الشهرة أقوالهن وأخبارهن . لقد اختلف فيها كتاب السير القدامى . ثم جاء المستشرقون فاضافوا إلى البلبلة القديمة محاولة عجيبة ، حيث نسبوا رابعة إلى الأصول الفارسية تارة ، وإلى الأعراق النصرانية تارة أخرى . وسأحاول هنا- بعد أن أعرض تلـــك الروايـــات التاريخية أن أحكم على كل منها . حتى يتضح تاريخ رابعة بناء على منهج علمـــى سليم .

روى أبن خلكان فى (وفيات الأعيان) : أن رابعة مولاة لآل عتيـــك ، وأن آل عتيك بطن من بطون قيس ، وأن أباها اسمه إسماعيل .

وتحدث الجاحظ (فى البيان والتبيين) عن رابعة فأسماها القيسية وقال : ومن آل عتيك بنو عدوة . ولهذا تسمى العدوية . أما كنايتها فأم الخير وهى بنت إسماعيل .

و(فى طبقات الأولياء) يؤيد صاحب النجوم الزاهرة والزبيدى هاتين الروايتين اللتين نصتا على أن ووالدها هو إسماعيل .

ويأتى المناوى فينعتها بالقيسية . ولكنه يختلف مع الروايات السابقة فى اسم أبيها حيث يذكر بعدها رابعة العدوية ثانية وهى رابعة التى اختلطت بها كتب التاريخ السالفة الذكر .

وكذلك الشعرانى من قبل المناوى قد ميز بينها وبين رابعة بنت اسماعيل . وابن الجوزى فى روايته فى " صفوة الصفوة " يؤيد الشعرانى والمناوى فى الفصل بين الاسمين الذين تشابها فى الاسم والكنية .

وعلى ذلك فهؤلاء الثلاثة (الشعرانى والمناوى وابن الجوزى) قد ميزوا بينهما . فسموا رابعة التى نؤرخ لها " بالبصرية "والأخرى " بالشامية " . ومعنى هذا أنهم نسبوا كلا منهما الى البلدة التى عاشت فيها .

يقول ابن الجوزى (وقد أخبرنا أبو ناصر قال أنبانا أبو الغنائم بن الترس قال رابعة بالباء بنقطة تحتية بصرية . ورابعة باثنتين من تحتها شامية).

ويقول المناوى : ورابعة هذه بمثناة تحتها وهى شامية ، والتى قبلها بواحدة تحتية وهى بصرية فافترقا .

وكذلك الشعرانى أرخ لكل منهما على حدة.

ومما هو جدير بالملاحظة هنا: أن الروايات التى اسمت والد رابعة بإسماعيل ولم تتعرض لرابعة الثانية قد تأثرت جميعها برواية ابن خلكان السابقة وهو ليس بعمدة فى تاريخ المتصوفة . كما نلاحظ أيضا أن هذه الروايات قد ذكرت زواج رابعة من " أحمد بن أبى الحوارى " كما تحدثت أخرى عن صلاتها العلمية "بالحسن البصرى " .

غير أننا لو رجعنا إلى التاريخ لوجدناه يرفض هذه الصلة وتلك الزيجة .

فماذا يقول التاريخ فى ذلك ؟

يقول صاحب كتاب "رابعة والحياة الروحية فى الإسلام ": أن التاريخ يقرر أن الحسن البصرى توفى بإجماع الروايات فى مستهل رجب ١١٠هـ ، ١٠ أكتوبر سنة ٧٢٨ م وأن رابعة البصرية قد توفيت سنة ١٨٠ هـ . ومعنى ذلك أنها توفيت بعد وفاة الحسن البصرى ، ومما لاشك فيه أنها سن لا تؤهلها لتلك الصداقة ، ولا للجدل والحوار حول قمة المعرفة كما ترى الروايات . ومن جهة أخرى: فإن موضوع زواجها من أبى الحوارى باطل أيضا . وذلك لما يأتى :-

إن كتب المناقب والطبقات تحدثنا عن ابن أبى الحوارى قائلة بأنه عاش فى الشام فى أوائل القرن الثالث للهجرة وهو فتى فى عنفوان الشباب . فكيف إذن تزوج برابعة التى كانت قد انتقلت الى جوار ربها (منذ أكثر من عشرين عاما) .

ثم يقول الأستاذ طه عبد الباقى ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى خطأ آخر وقعت فيه كتب المناقب والطبقات . وفحواه أن صلة كانت موجودة بين رابعة وذى النون المصرى . ونقول: إنها صلة لا يعترف بها التاريخ ولا يعترف بها النطق العلمى.وذلك أن ذا النون قد توفى سنة ٢٤٥هـ وهو فى الستين من عمره . ومعنى هذا أنه ولد بعد وفاة رابعة بخمس سنوات . وهذا معناه نفى الالتقاء التاريخى بينهما.

وسبب هذا الخطأ من غير شك هو خلط رجال التاريخ وكتاب المناقب بين رابعة البصرية ورابعة بنت إسماعيل الشامية .

فالتى تزوجت أحمد بن أبى الحوارى هى رابعة الشامية وكانت تعيش فى الشام كما يقول المناوى وهذه توفيت سنة ٢٢٩ ودفنت برأس زينا ببيت المقدس من جهة القبلة . وهى أيضا التى التقت بذى النون المصرى وتبادلت معه الحوار الصوفى ويؤيد ذلك أنهما عاشا معا فى وقت تاريخى مشترك . وعلى ضوء هذه الحقائق التاريخية نستطيع أن نميز بين روايات المؤرخين من جهة . وأن نخلص تاريخ رابعة العدوية البصرية مما لحق به من أحاديث وأحداث تتعلق برابعة الشامية .

وهذا كله فيما إذا كانت رابعة قد توفيت سنة ١٨٠هـ أما إذا كانت رابعة قد توفيت (كما فى بعض الروايات) فى سنة ١٣٥ هـ كما يرى المرحوم الدكتور محمد غلاب ، فقد انحسم هذا الخلاف من أساسه . بناء على ما سبق نقول إن رابعة عربية أصيلة باجماع الروايات،وإنها قيسية عدوية . غير أن المستشرقين – الذين أوقفوا أنفسهم على التصوف الإسلامى ودراسته لحاجة فى النفس لم يحاولوا بدافع الأمانة العلمية أن يفصلوا بين الروايات المتعددة عن أسرة رابعة ونسبها . ولكنهم على حد تعبير صاحب كتاب " رابعة والحياة الروحية فى الإسلام" – راحوا يتحسسون بابا يتفق مع أهوائهم فراحوا يتلمسون فى أنساب الصوفية أصولا غير عربية لينفذوا من ذلك إلى أن التصوف الإسلامى ينابيعه فارسية أو هندية أومسيحية . فذهب فريق إلى أنها فارسية من أصل ايرانى . وإذن فهى ذات صلة بزراد شت . كما ذهب فريق آخر إلى أنها تتصل بنسب إلى مسيحى هذه المنطقة الذين اعتنقوا الإسلام . وحيث إن هذه المذاهب مبنية على الحدث والتخمين لا على التاريخ والواقع فلا نقف معهم طويلا . وإذا كنت قد أبنت فى صدر هذا البحث أن التصوف الاسلامى عربى إسلامى فيكفى فيما قلته الرد على مزاعم هؤلاء المغرضين .

نشأة رابعة وحياتها :

العابدة الصغيرة فى الأسر والرق : ونحن لو تتبعنا رواية العطار عن نشأة رابعة ، لوجدناه يقول عنها: إنها فتاة نشأت منذ طفولتها فكانت عجبا بين لداتها ذكاء وإيمانا وحسا . فقد حفظت القرآن وحافظت على الصلاة وهى فى عمر الورد.

فقد قدم والدها طعاما إلى الأسرة فالتف أفرادها حولها ، الا رابعة التى نظرت إلى أبيها قائلة : يا أبت لست أجعلك فى حل من حرام تطعمنيه . فتعجب أبوها ورفع رأسه ممتحنا لها : أريت يا رابعة إن لم نجد إلا حراما ؟ فقالت : نصبر يا ابت على الجوع فى الدنيا ، خير من أن نصبر على النار فى الآخرة . لقد كانت فتاة تعدها العناية لرسالة وغاية .

ثم يقول العطار : لقد توفى أبوها وهى تنتقل من الطفولة إلى الشباب . ثم توفت أمها فاحست باليتم الكامل ، وشعرت بقسوة الحاجة ، فلا أخ لها ولا مال . وهكذا حرمت من دفئ الحنان والحب الأبوى . فى الوقت الذى بدأت تتفتح فيه للحياة والشباب . وحل الجفاف والقحط بالبصرة إلى حد المجاعة ، فتركت هى واخوتها الكوخ ، وسرن فى الأرض يبحثن عن القوت . وفرق الدهر بين الشقيقات فأصبحت رابعة وحيد ة فقيرة.

وانتشر اللصوص وقت المجاعة ، كما انتشر تجار الرقيق ، فوقعت فريسة فى يد ذئب من هؤلاء الذئاب ، فباعها لتاجر بستة دراهم . وكان التاجر قاسيا فقسى عليها وأرهقها.

غير أنها– رغم تقلبها فى ألوان من العذاب – لم ينطفئ القبس المتقد فى قلبها الغض . لقد كان سر رابعة الأكبر هو العناية الربانية التى قدرت لها . كما كان سرها انها من الصفوة المختارة الذين خاطبهم المولى عز وجل بقوله (ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم) لقد كانت تهرب من ضيق حياتها الى سعة إيمانها الكبير فترى فى مرآة الايمان أنها تعيش فى جنات وعيون وزروع ومقام كريم .

لقد كان الإيمان قوتها كما كان شرابها . كان الايمان ساحتها الخفية التى تهرع إليها كلما مسها عذاب . كانت الدنيا بكل ما فيها بعيدة عن قلبها ، فى حين أنها كانت تتجه بكل أحاسيسها إلى مصور هذا الكون وصانعه . كان نهارها هما ورهقا فإذا جن الليل أطلقت كنوز قلبها وحماسة روحها ونور إيمانها ضراعة وهتافا وحنينا وشوقا فإذا اشتغلت أنفاسها بالدعاء ، هبط على قلبها السر الذى جعل النار بردا وسلاما على إبراهيم. لقد كانت سعيدة بالإيمان فى عيشتها . والإيمان أول الدرجات فى مقامات العابدين . وهى فى تسبيحها وتهليلها كانت تهبط عليها بركات وفيوض تدفعها الى التطلع إلى مزيد من المعرفة ، ومزيد من الكرامة .

ولا شك أن الإيمان يورث العزة والثقة عند كل مؤمن . ولكن العابدين لهم بعد الإيمان مقامات خاصة ، تثير الحيرة والخوف والحزن الغامض .

وهكذا أحست رابعة ببواكير جديدة غامضة حزينة . لقد أخذتها خشية قاسية ترى هل مولاها راض عنها ناظر إلى عبادتها وتسبيحها ؟ إنها لتريد من ربها شيئا جديدا وهى التى ما سألت قط تريد الرضا من فاطر السماوات والأرض .

يقول فريد الدين العطار : " كانت رابعة تناجى ربها وهى باكية قائلة الهى أنا يتيمة معذبة أرسف فى قيود الرق وسوف أتحمل كل ألم وأصبر عليه ، ولكن عذابا أشد من هذا العذاب يؤلم روحى ، ويفكك أوصال الصبر فى نفسى منشؤه ريب يدور فى خلدى ، هل أنت راض عنى . تلك هى غايتى " لقد ارتفعت فى إيمانها درجة لأن الإيمان حركة أولى تتبعها مقامات ودرجات ، أولها نشدان رضاء الله فهو الأصل وعليه يقوم البناء .

أرسلها سيدها يوما لقضاء حاجة له من السوق ، فأخذت تسعى فى أزقة البصرة فلمحها رجل سوء فأعجبه شبابها وحياؤها ، فلاحقها بنظراته الجريئة ، فاطربت فتعثرت وسقطت على الأرض ، فانكسر ذراعها ، وغشى علها ، فلما استردت صوابها رفعت رأسها تناجى ربها :" رباه قد انكسرت ذراعى وأنا أعانى الألم واليتم ، وسوف أتحمل كل شئ وأصبر عليه فهل أنت راض عنى يا سيدى . إلهى هذا ما أتوق الى معرفته " .

وانتقلت رابعة من مقام نشدان الرضا لترتفع درجات .

إن فى قلبها همسا جديدا وفى روحها نداء حارا . أشياء مبهمة لاتفهم سرها . إنه الحب الكبير الذى سيتطور مع الزمن فيملأ الوجود بألحانها وهتافاتها . الحب الذى ستعرف به رابعة ، ويكوون علما عليها وتكون علما عليه . الحب الإلهى فى أسمى صوره ، التى هى مؤسسة مدرسته فى التصوف الإسلامى .

كانت رابعة تعيش فى آفاق من العناية ، يعز على القلم أن يتناولها. فهو لايستطيع التعبير عنها ولا يذوق طعمها الا من عاش فيها .

وبينما كانت غارقة فى مناجاتها الذاهبة بين الحب وطلب الرضا ، إذ سمعت صوتا (كما يقول العطار) يقول " لا تحزنى ففى يوم الحساب يتطلع المقربون فى السماء إليك ، ويحسدونك على ما تكونين فيه ".

ومن هذا الصوت عرفت رابعة أنها على الجادة ، وأن مولاها يرعاها ويقبـــل مناجاتها . ومن هنا أقبلت رابعة على عملها الشاق فى بيت سيدها راضية باســمة . إنه يملك نهارها . أما ليلها فهو خلوتها الكبرى ، حيث تحلو النجوى وتصفو العبادة وتشرق الأنوار .

إنها الآن ثابتة الخطى محددة الهدف. انها لتحس فى قلبها النور ، وترى الوجود حديثا ناطقا بوحدانية الله ومحبته ، والكون الكبير كله عابدا مسبحا محبا (تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شئ إلا يسبح بحمده) .

وفى سيرنا مع العطار فى روايته عن رابعة نراه يقول " استيقظ سيدها ذات ليلة فسمع صوت مناجاة حارة ، فأخذ يتتبع الصوت إلى غرفة رابعة ، ثم نظـــر مـــن خصائص الباب فرأى رابعة ساجدة تصلى وتقول : إلهى أنت تعلم أن قلبى يتمنـــى طاعتك ، ونور عينى فى خدمتك ، ولو كان الأمر بيدى لما انقطعت لحظـــة عـــن مناجاتك ولكنك تركتنى تحت رحمة هذا المخلوق القاسى من عبادك).

وخلال دعائها وصلاتها ، شاهد قنديلا فوق رأسها يحلق ، وهو بسلسلة غـــير معلق وله ضياء يملأ البيت كله . فلما أبصر هذا النور العجيب فزع وظل ســاهدا مفكرا حتى طلع النهار . هنا دعا رابعة وقال : أى رابعة وهبتك الحرية فإن شئت بقيت هنا ونحن جميعا فى خدمتك . وإن شئت رحلت أنى رغبت . فما كان منها إلا أن ودعته وارتحلت ثم انقطعت للعبادة .

رابعة بعد تحررها والفترة الغامضة من حياتها :

وتبدأ المرحلة الغامضة من حياة رابعة تلك المرحلة التى انطلــق فيــها خيــال خصوم التصوف ورجال الاستشراق . حيث نراهم وقد صوروا لنا رابعة بصــورة ماجنة ترضى خيالهم .

إن فريد الدين العطار يقول فى هذا المجال : إن رابعة بعد تحررها احـــترفت مهنة العزف على الناى زمانا . ثم اعتزلت الناس بعد ذلك ، وابتنت لنفسها خلـــوة انقطعت فيها للعبادة .

ومن الملاحظ أن رواية العطار هذه لا نرى ما يؤيدها من كتب المناقب الأخرى وبمعنى آخر . إن العطار قد انفرد بالقول بأن هناك فترة احترفت فيها رابعة العزف على الناى .

ومما يدعو للدهشة هنا أن الدكتور عبد الرحمن بدوى فى كتابه عن " رابعة شهيدة العشق الإلهى" قد كذب العطار فيما رواه عن رابعة ، واتهمه بجموح الخيال والكذب التاريخى . وما أن وصل إلى قوله عنها إنها احترفت العزف على الناى قال الدكتور بدوى : إن هذه الرواية صادقة: لأن رابعة كانت باهرة الجمال ساحرة الفتنة . ثم قال بالحرف الواحد ويحتمل كذلك أنها إبان هذه الحياة الفنية بما تقتضيه من ملابسات قد اندفعت فى طريق الشهوات إلى مدى بعيد . ويخيل إلينا أنها قطعت شوطا طويلا فى طريق الاثم ، وغرقت فى بحر الشهوات ،واقتاتت بقوت الحواس حتى الثمالة "

ومما هو جدير بالاهتمام هنا أيضا: أن نلاحظ أن كل ما يملكه الدكتور من أدلة علمية وتاريخية ليقذف رابعة بكل هذه التهم هو كلمتى(يحتمل ويخيل) . ويروح فيبنى على هذا الاحتمال وذلك التخيل نظرياته فى رابعة والحب الإلهى وتحولها الروحى فيقول فى الكتاب نفسه :

" فهذه الانقلابات الروحية الكبيرة ، انما تقع دائما نتيجة لعنف وإفراط ومبالغة الطرف الأول المنقلب عنه . فعنف إيمان القديس بولس كان نتيجة لعنف أفكاره المسيحية . وعنف الحياة النقية لدى القديس اوغسطين ، كان لازما طبيعيا لعنف الشهوات الحسية التى حييها قبل تحوله إلى الإيمان ، إن الاعتدال من شأن الضعفاء والتافهين . أما التطرف فمن شيمة الممتازين الذين يبدعون ويخلقون التاريخ ، وما كان يمكن لرابعة أن تتطرف فى إيمانها وحبها لله إلا إذا كانت قد تطرفت من قبل فى فجورها وحبها للدنيا، ومن أعماق الشهوات العنيفة تنبثق الشرارة المقدسة للطهارة ، ومن أعماق الإنكار تنطلق الموجة التى تنشر الإيمان فى الدنيا بأسرها،ولهذا أدعو إلى التطرف المطلق كل من يريد أن يكون خالقا للقيم " .

ثم يستمر فى تأييد نظريته فيقول " أوغلت رابعة إذن فى طريق الشهوات الجامحة ما وسعها الإيغال " ، وهكذا نرى الدكتور بدوى بعد أن كان يقول فى البداية : يحتمل ويخيل : أصبح الآن كل منهما حقيقة وقاعدة تركز عليها كل النظريات التى تليها .

وهناك حقيقة ثانية نستطيع فى بساطة أن نفهمها من كلامه السابق وهى : أنه لا يمكن لإنسان أن يكون مؤمنا قويا فى عقيدته ، إلا إذا كان ملحدا أو فاسقا من قبل .

والحق أننا لو طبقنا تلك النظرية على التاريخ لكان الأولياء والقديسون والصالحون ورجال الإيمان ملا حدة فسقه ، اقتاتوا بقوت الحواس وشربوا من الرذائل حتى الثمالة .

إننا إن أردنا الدقة والإيجاز فى الرد على الدكتور بدوى نقول : إن هذه نظرية لا يؤيدها المنطق العلمى والواقع التاريخى هكذا يقول صاحب كتاب (رابعة والحياة الروحية فى الإسلام).

ونعود إلى السير مع العطار فى مقالته عن رابعة التى أشرنا إليها أنفا وهى أن رابعة احترفت العزف على الناى ، والتى صمتت كتب الطبقات فلم تذكر شيئا عنها والتى تسربت منه الى غيره من رجال التاريخ .

ونقول فى هذا المجال : إن الحقائق التاريخية تفيد أن رابعة التى نشأت مع النور – كما يقول العطار – والتى حذرت أباها وهى طفلة من طعام فيه شبهة ،والتى كانت لاترفع رأسها إلى السماء حياء من الله ، وتصلى فى اليوم ألف ركعة كما تقول كتب المناقب إلى غير ذلك نقول : إن رابعة هذه ليست هى التى تقابل نعمة الله عليها إذ حررها من الرق بفضل صلاحها وتسبيحها وما شاهد سيدها من كرامتها على ربها ، ليست هى التى تحترق فى الشهوات ، وتقتات بقوت الحواس وتغرق فى الاثم .

لقد قالت كتب الطبقات عنها إنها بعد تحررها أخذت تلوذ بحلقات المساجد ([1]) وتتصل بالرعيل الأول من رجال التصوف فى البصرة مثل (إبراهيم بن أدهم ومالك بن دينار وسفيان الثورى . وشقيق البلخى) .

وهكذا بدأت تلجأ إلى المساجد وساحات المتصوفة وحلقات الاذكار والصوفية التى كانت فى ذلك الوقت عامرة ومزهرة .

ويكفى للتدليل على ذلك ما قاله " سهل التسترى " - وقد أشرنا إليه سابقا- " لما دخلت البصرة وجدت فيها أربعة آلاف يتكلمون فى المعرفة ".

ونلاحظ أن رابعة كانت عند تحررها حسب الروايات التاريخية فتاة فى مقتبل الشباب ، ذابلة العود من الألم وعذاب الرق والأسر ، محطمة من اليتم والفقر ، فلا ندهش إذا سرنا مع رواية العطار من أن رابعة كانت تعزف على الناى فى حلقات الذكر وساحات المتصوفة .

ثم إن العطار ذكر أنها احترفت العزف على الناى ، ولكنه لم يقل أنها احترفت الغناء . والناى أداة من أدوات العزف فى ساحات الأذكار وحلقات المتصوفين .

وإذن : فرابعة إن صح هذا فهى لم تزد عن أن تنفست فى هذا الناى تنفسا إيمانيا مع الضارعين إلى الله فى محاريبه .

وهو إن صح فقد وجدت فيه ترجمانا لما عجز اللسان عن الإفصاح به والأناشيد فى دنيا التصوف وعزف الناى عند المتصوفة ليس فكرا بل هو عمل يبعث الوجد ويحرك القلب .

لقد تحررت رابعة من الرق ، فعاشت فى حلقات المساجد تعزف الناى مع العابدين ، لقد عاهدت ربها بعد تحررها أن تعيش حرة من كل شهوات الدنيا ، عبدة لمولاها ولا يملك قلبها شئ مما يملك قلوب الناس .

([1]) كانت مساجد البصرة جامعات كبرى للعلم والأدب والتصوف وأطلق لقب (المسجديين) على كثير من علمائها وعبادها ، يقول الاستاذ طه الحاجرى فى تحقيقه لكتاب البخلاء للجاحظ ما يفيد هذا المعنى .

لقد نذرت نفسها للمحاريب ، وأقبلت بكل قلبها على المناجاة فى ساحة القـــرب والحب والرضا ، ساحة العبودية الخالصة لمن هو جدير بهذه العبودية ، جدير بهذا الحب وهو الله تعالى . وكيف لا وهى القائلة " لو كانت الدنيا لرجل ما كـــان بـــها غنيا،قالوا لماذا ؟ قالت لأنها تفنى " وصدق الله العظيم إذ يقول " كل شئ هـــالك الا وجهه ".

رابعة العذراء

لقد كانت الفترة التى مكثت فيها رابعة بالمساجد فترة عابرة ، بدليل صمت كتب المناقب عن هذه الفترة السريعة .

لقد تركتها رابعة سريعا إلى حياة العزلة ، تلك الحياة المليئة بـــالخير ، الحـــب والجمال والتسبيح والتهليل والاستغفار والتفكر فى الملأ الأعلى .

قال (أبو سعيد بن أبى الخير) : إنه سمع من (أبى على الفقيه) أن رابعة سـئلت كيف بلغت هذه المرتبة العالية من الحياة الروحية . فأجابت : بقولى دائما " اللـــهم إنى أعوذ بك من كل ما يشغلنى عنك ، ومن كل حال يحول بينى وبينك ".

وهكذا أقبلت على ربها لا شاغل لها سواه فى ليلها ونهارها. فقد كانت تصلـــى العشاء ثم تصف قدميها للصلاة وتقول ما رواه لنا صاحب " الروض الفائق فـــى المواعظ والرقائق " إن رابعة كانت إذا صلت العشاء قامت على سطح لها وشـــدت عليها درعها وخمارها ثم قالت " إلهى أنارت النجوم ، ونامت العيـــون و غلقـــت الملوك أبوابها ، وخلا كل حبيب بحبيبه . وهذا مقامى بين يديك ، ثم تقبـــل علـــى صلاتها . فإذا كانت وقت السحر وطلع الفجر قالت : إلهى هذا الليل قد أدبر وهـــذا النهار قد أسفر، فليت شعرى أقبلت منى ليلتى فاهنأ ، أم رددتـــها علـــى فـــأعزى فوعزتك هذا دأبى ما أحييتى واعنتنى ، وعزتك لو طردتنى عن بابك مـــا برحـــت عنه ، لما وقع فى قلبى من محبتك ، فكيف تتزوج وقد نذرت نفسها لله ، إنها لاتريد أن يشغلها عنه حتى البيت السعيد والزوج الكريم .

وليس معنى هذا أن رابعة تحرم الزواج ، فهى تعلم أنه سنة الإسلام وشـــريعة الحياة . ولكنها لا تشعر برغبة لشئ فى الدنيا ، لقد شغلها ربها عن عبـــاده ، فمـــا شان العباد بها.

روى الزبيدى قال " خطبها "عبد الواحد بن زيد" مع علو شأنه فهجرته أيامـــا حتى شفع له عندها إخوانه، فلما دخل عليها قالت له " يا شهوانى اطلب شـــهوانية مثلك "

وروى المناوى قال " كتب محمد بن سلمان الهاشمى وكانت غلة ملكه كل يوم ثمانين ألف درهم إلى كبراء أهل البصرة فى امرأة صالحة يتزوجها . فـــأجمعوا على رابعة فكتب إليها : أما بعد: فإن الله ملكنى كل يوم ثمانين ألف درهـــم فأنـــا أصيرها ومثلها إليك فاجيبينى إلى ما سألت : فكتبت إليه :

" أما بعد : فإن الزهد فى الدنيا راحة البدن ، والرغبـــة فيـــها تـــورث الـــهم والحزن،فهيئ أمرك وقدم لمعادك ، وكن وصـــى نفســك ، ولا تجعــل الرجــال أوصياءك فيقتسموا تركتك ، وصم الدهر واجعل فطرك الموت ، وأمـــا أنـــا فلــو خولنى الله أمثال ما خولك وأضعافه ما سرنى أن أشتغل عـــن ذكــر الله طرفـــة عين.والسلام ".

حقا : إنه لمن الفخر أن نقول تعليقا على هذا الرد الحاسم : لقد كـــان زفافـــها الخلوة ، وعرسها الذكر ، ولذتها المناجاة، وحبها الخالد هو حبـــها لله ، وكيــف لا وهى القائلة :

راحتى يا إخوتـــى فـــى خلوتـــى	وحبيبـــى دائمـــا فـــى حضرتـــى
لـــم أجـــد عـــن هـــواه عوضـــا	وهـــواه فـــى البرايـــا محنتـــــى
حيثمـــا كنـــت أشـــاهد حســــــنه	فـــهو محرابـــى إليـــــه قبلتـــــى
يا حبيــــب القلـــب يـــاكل المنـــى	جد بوصل منك يشـــفى مـــهجتى
يـــا ســـرورى وحيـــاتى دائمـــــا	نشـــأتى منـــك وأيضـــا نشـــوتى
قد هجرت الخلق جمعـــا أرتجـــى	منك وصلا فهل أقضـــــى منيتـــى

وهكذا تهجر رابعة الخلق جميعا، لأنها عاشت للروح لا للجسد . فماذا يبتغى الرجال منها ؟.

المنهج الروحى لرابعة

لقد بلغت موجة الفتح العربى غايتها فى ختام القرن الأول للهجرة ، وسيطر عالم القرآن على الكوكب الأرضى دون مدافع. وابتدأ العالم الجديد يلتفت إلى الجوانب الثقافية والعلمية والفكرية ، وابتدأ السباق فى عنف وسرعة إلى التنقيب عن الآراء الفلسفية و الجدلية ، والبحث عن التراث القديم للأديان الكتابية . وابتدأت تبعا لذلك إشراقة الإيمان الروحى ، التى هى طابع الإسلام تتوارى شيئا فشيئا خلف ركام كثيف من النظريات الفلسفية والمنطقية وما يدور فى فلكها من جدل وحوار حول الصفات والذات . وأخذت مدارس المنطق والجدل تتكون وتتكاثر لتغرق العالم الإسلامى فى أمواجها . وأسرعت المباحث الفلسفية والعقلية تدق أبواب الفقه وتندفع إلى ساحات التفسير حيث أرست قواعدها داخل علم الكلام ، الذى أصبح الباب الأكبر لفتنة المسلمين فى دينهم .

يقول الإمام مالك (الكلام فى الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه ... ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل) ويقول الإمام أحمد : (لا يفلح صاحب كلام أبدا ، ولا نكاد نرى أحدا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دخل).

وكان لابد من حركة مقاومة لهذا التيار الجارف ، فقد قاد هذه الحركة صفوة مختارة من رجال الحديث ، غلبت عليهم صفات الزهد ، حتى عرفوا فى التاريخ بالزهاد ، غير أن هؤلاء الزهاد لم يكونوا من القوة والعزة بحيث يستطيعون الوقوف أمام ذلك التيار العنيف ، الذى استمد مقوماته من غير العرب الذين دانوا بالإسلام . ولا تزال عقولهم وقلوبهم عالقة بآثار معارفهم القديمة . لقد كانت الجماهير فى حاجة إلى من يخاطب قلبها ، ويوقظ روحها ، ويتسلل إلى وجدانها ليشعل وقود الإيمان فى جوارحها ، كما كانوا فى حاجة إلى عازفين مهرة تبعث موسيقاهم المؤمنة الرقيقة أحلاما سعيدة . كانوا فى حاجة إلى ذلك الإيمان الفطرى غير المعقد الذى يربط الإنسان بربه فى مودة ومحبة ويسر وبساطة .

وهنا جاءت رابعة على ميقات وقدر ، لتكون إحدى الشخصيات التى حولت الزهد إلى محبة ، والرهبة إلى رغبة ، والتعقيد إلى بساطة ، والفلسفة إلى إيمان ، والجدل إلى عمل ، والفقه إلى تعبد وأخلاق ، والحياة إلى خفقة قلب ووثبه روح ، ورفرفة أجنحة تتسابق فى الصعود نحو المثل الأعلى ، نحو مولاها وخالقها .

ومع متابعتنا لصاحب كتاب (رابعة والحياة الروحية فى الإسلام نجده يقول : لقد جاءت رابعة لتشيد فى الإسلام مدرسة التصوف الحقة بكل ما فيها من إلهام وفيض وكشف ومعارف ومعارك ، وجاءت رابعة لتصنع على مائدة الجمهير زاد الاستهواء الوجدانى بما أضفته على العبادات من أضواء ساحرة ، وما فجرت فى الذكر والمناجاة والمحبة من ينابيع سائغة للشاربين ، ومرشدة للحيارى والمتعبين .

لقد جعلت رابعة الحياة أنشودة سماوية ، تهتف بحب الله ، ومن حبها لله انبثق حبها للكون بكل ما فيه . وتلك مرتبة فى تذوق الحياة ، لقد شعرت بالجمال الإلهى فأحبت كل شئ جميل وكل ما فى الوجود جميل لأنه من صنع الله الجميل .

لقد أحبت كل ما يجرى به القضاء والقدر، وكيف لا ؟ وكل أمر من الله فهو خير ووراؤه حكمة .

وعلى نور تلك القاعدة : ربطت رابعة بين الإنسان وكل ما يحيط به من كل شئ وجعلت التقوى وحب الله طريقا للتفاهم بين الإنسان وما يحيط به . فمن اتقى الله خضع له كل شئ ، أليس كل شئ يسبح بحمد مولاه (1) ويستغفر للإنسان (2) ويخضع له ويستجيب (3) بما أودعت فيه القدرة الربانية من استجابة وطاعة (وسخر لكم ما فى الأرض جميعا منه) .

---

(1) " وإن من شىء إلا يسبح بحمده ".

(2) جاء فى الحديث ما معناه : ان الجبال لتنادى هل مر بأحدها عابد أو مسبح ثم تستغفر له .

(3) يروى ابن القيم فى كتابه : الجواب الشافى ص ١٠٠ عن شيخه أنه كان يقول : إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خلق امرأتى وابنى .

لقد جعلت من خواطر النفس ووساوسها فلسفة حية تمشى بين الناس ، وتعيش فيما يصدر عنهم . ولا أكون مغاليا إذا قلت: إن رابعة أكبر أستاذة علم نفس فى عالم التصوف ، وأعظم من رسم صور الإيمان الصحيح فى عالم الروح .

ففهم رابعة لخواطر النفوس وشهواتها ، وتلون القلوب ومداخلها ، وصور الدنيا ومفاتنها ، وما يلبس الشيطان على الناس من صور الزهد فى الدنيا بينما يدفعهم إلى ساحاتها كل هذا كان لرابعة فيه القدم الراسخة ، والفهم المستنير ، والتوجيه الكامل . ولاتزال كلماتها المدوية (استغفارنا يحتاج الى استغفار) عنوانا خالدا يكاد يحسه كل من رفع يديه إلى ربه مناجيا أو مستغفرا .

قال القرشى : دخل على رابعة . رباح القيسى ، وصالح بن عبد الجليل،وكلاب فتذكروا الدنيا فجعلوا يذمونها . فقالت رابعة : إنى لأرى الدنيا بترابيعها فى قلوبكم قالوا: ومن أين توهمت علينا ؟. قالت : إنكم نظرتم إلى أقرب الأشياء من قلوبكم فتكلمتم فيه .

روى المناوى : " فى الكواكب الدرية " قائلا : ذم بعضهم الدنيا عندها فقالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم _ (من أحب شيئا أكثر من ذكره) ذكركم لها دليل بطالة قلوبكم إذا لو كنتم غرقى فى غيرها ما ذكرتموها).

وهكذا تمشى رابعة بهذه اللفتة العبقرية مع أحدث نظريات علم النفس المعاصر حقا: إن المستغرق فى حب الله لا يذكر غير الله . وحول هذا المعنى كان رد رابعة على هؤلاء القوم الذين شغلوا أنفسهم بهذا الحديث المصنوع وهم لا يعلمون أنهم بهذا الحديث أقرب ما يكونون إلى الأرض لا إلى السماء . يقول سفيان الثورى يوما لأصحابه: هيا بنا الى المأدبة التى لا أجد من أستريح إليه إذا فارقتها ، فلما دخل عليها سفيان رفع يده وقال : اللهم إنى أسألك السلامة . فبكت رابعة . فقال لها ما يبكيك ؟ قالت : أنت عرضتنى للبكاء ، فقال لها وكيف ؟ قالت : أما علمت أن السلامة ترك ما فيها ، فكيف وأنت متلطخ بها.

وهذا درس آخر تلقيه رابعة . وهو أن لا يكذب العمل الدعاء . من دعا بشيء فليتأدب أولا . وأول شرائط الأدب الصدق .

وليس معنى هذا أن سفيان وهو من أعلام التابعين كان مفتونا بالدنيا . وإنما نشدت رابعة له الكمال تمشيا مع مقامه .

وتقول رابعة يوما لسفيان : نعم الرجل أنت لولا رغبتك فى الدنيا . قال : فبماذا رغبت ؟ قالت فى الحديث : وكيف لا . وهى القائلة (لو كانت الدنيا لرجل ما كان بها غنيا . قيل لها كيف ؟ قالت: لأنها تفنى) ، وبتلك الكلمة جمعت رابعة خلاصة منهجها حيال الدنيا، ووضعتها فى المكان اللائق بها ، إنها لفانية ذاهبة . إنها ليست بشىء فى منطق رابعة . إنها لتنشد الخلود ، تنشد الحى القيوم الذى يفنى كل شئ،ويبقى وجهه ذو الجلال والإكرام .

تلك لمحات من نهج رابعة الصوفى . وموقفها من الدنيا . وفهمها لخواطر النفوس قصدنا بها هنا أن نمهد لرسالتها الكبرى وهى : إنارة الطريق إلى الله . وتفصيلها لمنازل السائرين ، ومدارج السالكين ، ومعارج الواصلين ، ومقامات العارفين .

تقول رابعة : ليس من المستطاع أن تميز بالنظر بين المقامات المختلفة فى الطريق إلى الله ، ولا أن تصل إليه باللسان . فلتجعل قلبك مستيقظا ، فإذا استيقظ رأيت بعيونه الطريق ، وكان فى وسعك بلوغ المقام " .

تلك هى الخطوة الأولى فى دنيا التصوف ، وفى نهج رابعة التعبدى . إن الإنسان لن يصل إلى الله باللسان وبالجدل والحوار والدعاوى . ولن يتذوق أنوار المعرفة بالنظر العقلى الفلسفى ، أو قواعد علم الكلام. إنما سبيل ذلك يقظة القلب التى تشعل النور فى كل شئ . فإذا استيقظ رأيت بعين البصيرة الطريق ، وأصبح فى طوقك بالعمل المتواصل واليقين الشامل والشوق الملتهب أن تصل إلى الغاية الكبرى معرفة الله عز وجل .

ومن هنا تتفجر ينابيع المعرفة . وتشرق أنوار الإلهام . وتبدأ حياة السعداء والأوفياء ممن يحبهم الله ويحبونه . حياة من بربه يسمع ويرى ، حياة من رضى الله عنهم ورضوا عنه .

واسمعها تعبر عن قصة الحياة فى كلمات قليلة فى غير فلسفة ولا تعقيد ، حين تقول: ."إنما أنت أيام معدودة فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل ، وأنت تعلم فاعمل" .

حقا إننا نعلم ذلك بالمشاهدة والأمر الواقع . فكيف لا نعمل لما هو أبقى .

إنه العمل والعمل وحده الذى يجعل لهذه الأيام الذاهبة قيمة فى ذاتها ، وقيمة فيما يعقبها من حياة خالدة .

ولكى يكون العمل سليما لا علة فيه ، يجب أن نتنبه لأدق الدقائق . لأن هذه الدقائق تنبت الكبائر وتفجر الشهوات([1]) .

إن رابعة ترى أن الخاطرة التى تومض فى الذهن ملوثة بأطياف الدنيا إذا لم يقاومها الإنسان فورا عند انبثاقها ، بالرجوع إلى الله جل جلاله ، فإنها سرعان ما تمتزج بالوساوس تارة ، وبهوى النفس تارة أخرى ، فتتولد منها شهوات النفوس،ومنها تخرج شياطين المعصية جبارة عاتية .

وترتب رابعة ما يقع فى النفس بعضه على بعض ، وهو ما يسمى فى لغة العصر (تداعى المعانى) فتبين أننا إذا فتحنا أبواب الشهوات بالتجائنا إلى خواطر النفس ، انهالت علينا ظلماتها آخذة بعضها بركاب بعض.

أما إذا امتطينا شعاع النور فى طريقنا الى الله ، توالى الإلهام ، وتتابعت معالم المقامات والأحوال . فالمحبة . واليقين . والثقة بالله . والشكر . والرضا . والزهد. والأنس . والشوق . والتوكل . والصبر . والمعرفة . واليقين . كلها معارج للنفس تتنقل بينها فى طريقها إلى الله تعالى . وبهذا تكون رابعة قد حللت بكلمات قصيرة وحاسمة هذه الأحوال والمقامات ، وبينت علاماتها . وليست فى هذا مسبوقة بل رسمت فصارت القافلة الروحية الإسلامية على نهجها .

([1]) جاء فى مسند أحمد من حديث ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إياكم ومحضرات الذنوب فإنهن يجمعن على الرجل حتى يهلكنه ، وضرب لهن الرسول مثلا ، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود ، والرجل يجىء بالسعرة حتى جمعوا سوادا وأججوا نارا وأنضجوا ما قذفوا فيها .

المقامات والأحوال الصوفية لرابعة

<u>أولا : مقام التوبة :</u>

إننا إذا سرنا مع كلمات رابعة فى المقامات والأحوال الصوفية الروحية ، وجدنا أنها تسير فى خط متناسق وواضح ينتظمها جميعا لا يتعثر ولا يميل . إنها تتسم بسمة بينة دائما فى أى مقام أو حال وهذه السمة هى الرضا الباسم بكل ما يأتى به القضاء والقدر، فى غير غضاضة أو ألم . والتوكل المطلق فى غير عجز ولا كسل. واليقين الثابت الذى لايلين مع الأحداث . والمراقبة الدائمة فى يقظة وفهم دقيق لمداخل القلوب . ومسارب النفوس ، وسبحات الأهواء . وفوق هذا كله تاج يتلألأ ضياء وسنى . وهو تاج الحب الإلهى فى أجمل صوره . الحب لذات الله جل علاه لا خوفا من عقاب ولاطمعا فى ثواب .

والتوبة فى منطق رابعة مقام وحال لأنها صفة دائمة للمؤمنين استجابة لقوله تعالى (وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون).

وشرط التوبة عندها : الصدق والإنابة . لان الاستغفار من غير إقلاع هو توبة الكاذبين . وسبيل المنافقين .

وعلى التوبة تنبنى المقامات كلها ويشيد صرح التصوف الشامخ . وعلى ذلك: فالتوبة أول منزل من منازل السالكين .

وتوضح رابعة أقسام التوبة: فتبين لنا أنها ألوان وهى: <u>توبة العوام من الذنوب</u> . <u>وتوبة الواصلين من الخواطر</u> . <u>وتوبة العارفين من السوانح</u> . <u>وتوبة المحبين من العجز عن القيام بحق المحبوب</u> . فإذا ما انتهت رابعة من توضيح أقسام التوبة،رجعت سريعا الى منهجها . وردت الأمر كله إلى الله كما هو شأنها . فهى ترى : أن التوبة فضل من الله ومنحة منه تعالى يختص بها من يشاء من عباده .

قال رجل لرابعة : إنى قد أكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبت هل يتوب الله على ؟ فقالت : لا: بل لو تاب عليك لتبت.

وبهذا القول: تقرر رابعة نظرية الاصطفاء . وأنه لا يسلك الطريق إلا من هدى الله " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ".

روى القشيرى أن صالحا المرى كان يكثر من قوله " من أدمن قرع باب يوشك أن يفتح له " فقالت رابعة : " إلى متى تقول هذا ؟ متى أغلق هذا الباب حتى ينفتح فقال صالح : شيخ جهل وامرأة علمت " .

وهكذا تقرر ربعة بهذا القول أن أبواب الله جميعا لا تغلق ، بل هى مفتوحة دائما وإنما العجز منا. وبهذا يتسق موقفها من التوبة مع سائر منهجها الإيمانى .

وينبغى أن نلاحظ هنا أن رابعة لاتثبط همم التائبين ، ولا تغلق الأبواب فى وجوههم . وإنما تدفع إلى هدف أكبر وهو افتقار العبد دائما إلى مولاه . وإشعاره دائما بفضله وإحسانه . وبذلك يخلص الإنسان من رق رؤية النفس وفتنة مشاهدة الأعمال والحسنات .

يقول " عبد الله بن على التميمى " شتان بين تائب يتوب من الزلات . وبين تائب يتوب من الغفلات . وتائب يتوب من رؤية الحسنات . "

وبهذا ننتقل الى المقام الثانى وهو :

ثانيا : مقام الرضا .

إنه لمن كمال العبودية الرضا بكل أمر واقع . لعل فيه حكمة " وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم " ويقول عمر بن عبد العزيز " لم أعرف ربى إلا يوم أصبح سرورى فى مواقع القضاء والقدر ".

ومقام الرضا وثيق الصلة بحياة رابعة . فهو من قواعد إيمانها وعلامات طريقها ، وإنها الراضية أبدا رضاء لو عرفه الناس لما رأينا ساخطا يلتهب بالغضب.

إنها لراضية كل الرضا عن مولاها وخالقها ، فرحة بما آتاها ، غير آسية على ما فاتها ، وليس معنى هذا أن نخضع لظلم أو نرضى عن حرمات الله تنتهك ، وحدوده تستباح . فهنا يكون الرضا إثما ويكون الخضوع معصية.

وإنما المراد ما يصيب الإنسان من أحداث الحياة وظروف القضاء من نقص فى الأموال والأنفس والثمرات .

روى القشيرى : " سئلت رابعة متى يكون العبد راضيا ؟ قالت : إذا سرته المصيبة كما سرته النعمة "

ووقع الجراد على زرع لها فأكله فابتسمت ، وقالت وهى تنظر الى السماء :"إلهى رزقى عندك فما نقصنى الجراد شيئا . ولا سلبنى رزقا ، وإنما هو قضاؤك والرزق عندك ".

ويقول المناوى " أصاب رأسها ركن جدار فأدماه ، فلم تلتفت إلى ذلك . فقيل لها : أما تحسين بالألم ؟ فقالت شغلى بموافقة مراده فيما جرى شغلى عن الإحساس بما ترون ".

و هذا يتفق مع دعاء الرسول المأثور " اللهم إنى أسألك الرضا بعد القضاء ".

وعن عبد الله ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم " لا ترضين أحدا بسخط الله تعالى ، ولا تحمدن أحدا على فضل الله عز وجل . ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك الله تعالى . فإن رزق الله تعالى لا يسوقه إليك حرص حريص ولا يرده عنك كراهية كاره . وإن الله تعالى بعدله وقسطه جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين ، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط " .

ثالثا : مقام المراقبة .

وهذا المقام مقام المراقبة من شوامخ التصوف وهو مقام الإحسان .

والإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك . وبين إحساس العبد بأن يرى الله ، وإحساسه بأن الله يراه تترقرق آداب هذا المقام .

وعند رابعة أن الشكر يكون على رؤية المنان . وهو أعلى ذروة مقام الإحسان،أى أنك ترى الله قبل أن ترى المنة . ولقد طلبت منها صديقتها "عبدة " ذات يوم من أيام الربيع المشرقة أن تخرج لتتأمل آثار قدرة الله فقالت : بل ادخلى أنت وتعالى تأملى القدرة فى نفسك ، وأضافت : إن مهمتى أنا أن أتأمل القدرة .

حقا: إنها لترى الله وقدرته فى كل شئ . إنه تعالى معها أينمـــا كـــانت . وأن قدرته ساطعة سواء تأمل العبد آثارها فى نفسه أو فى ملكوت السماوات والأرض . " أينما تولوا فثم وجه الله ". وإحساس رابعة بتلك القدرة إحساس واضح الأثر فـــى حياتها،وفى منهجها الروحى .

قال رجل لرابعة . وقد أعجب بمنطقها الروحى " إنك لتصلحين لحراسة رباط . فقالت: إنى حارسة رباط فعلا . أحفظ داخلى وخارجى . وأحافظ على قلبى " .

وهكذا تتضح رسالتها فى الحياة . إنها رقيب عتيد على قلبها ونفسها وأعمالها . ومن روائع رابعة التى كشفت عن جانب باهر من جوانب حياتها ، ذلـــك الحـــوار الذى دار بينها وبين رجل من عباد الجدل ، أراد أن يتفلسف . فعلمته كيف يكـــون الجواب الحاسم الحازم . قال لها : من أين أتيت ؟ قالت : مـــن العـــالم الآخـــر . قال:وإلى أين تذهبين قالت ؟ إلى العالم الآخر . قال : وماذا تفعلين فى هذه الدنيـــا ؟ قالت : أعبث بها . قال : وكيف تعبثين بها ؟ قالت :آكل خبزهـــا وأعمـــل عمـــل الآخرة .

وهكذا تسخر رابعة الدار الفانية للدار الباقية .

رابعا: مقام المحبة .

وعندما نصل الى هذا المقام مقام المحبة عند رابعة ، نجده المقام الأصيـــل عندها ، بل هو تاج نهجها الروحى الجليل . ومما يدل على ذلك أنه قيل لـــها ذات يوم:ما تقولين فى الجنة " قالت : الجار ثم الدار " ومعنى هذا فى وضوح أنها تنشـد الله قبل الجنة .

ويعقب الإمام الغزالى على ذلك حين يقول فى كتابه " إحياء علوم الدين " كـــل من لا يعرف الله فى الدنيا فلا يراه فى الآخرة . وكل من لم يجد لذة المعرفة فـــى الدنيا فلا يجد لذة النظر فى الآخرة. إذ ليس يستأنف لأحد فى الآخرة ما لم يصحبـه فى الدنيا ولا يحصد أحد إلا ما زرع ".

وسئلت ذات يوم عن حقيقة إيمانها فقالت : ما عبدته خوفا من ناره ولاطمعـــا في جنته فأكون كالأجير السوء ، عبدته حبا له وشوقا .

ولقد كانت تقول في مناجاتها لربها " إذا كنت أعبـــدك خوفـــا مـــن نـــارك فأحرقني بنار جهنم . وإذا كنت أعبدك طمعا في جنتك فاحرمنيها . أمـــا إذا كنـــت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني مشاهدة وجهك ".

ولقد روى الافلأكي في" مناقب العارفين " : وضعت رابعة النار في يد والمـــال في اليد الأخرى ثم أنشأت تقول: سأشعل النار في الجنة ، وأسكب الماء على النـــار حتى ينجاب الغشاءان عن طريق السالكين إلى الله . ويتبين مقصود هم ويشـــاهدوا الله لا يحدوهم أمل ولا يفزعهم خوف . أفإن لم يكن جنة ولانار لم يعبد الله أحـــد ؟ ولم يطعه أحد ؟ ".

حقا : إن رابعة لا تريد أن تكون أجيرة في عبادتها وحبها . إنها تعبد مولاهـــا حبا وشوقا وإجلالا وتعظيما .ويشتد الحب برابعة فتهتف من قلـــب مفعـــم بوقـــود الشوق الظمئ : إن كنت أعبدك خوفا من نارك فأحرقني بها . وإن كنـــت أعبـــدك طمعا في جنتك فاحرمنيها . أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فامنحني الجـــزء الأكبر . امنحني مشاهدة وجهك .

ويصعد الحب بها درجات فتعجب لهذا الخلق الذي يعبد الله بالأجر . فتتمنى لـــو قدرت على أن تشعل النار في الجنة حتى تزول . وتسكب الماء على جمرات جهنم حتى تنطفئ . وبذلك ترتفع الحجب ، ويزول الغشاء عن الطريق ، وتعرف مقـاصد العابدين هل هم عباد الله أم عباد لنعيم الجنة. وهل هم يخشون ربـــهم أم يرهبـــون النار ذات الوقود .

وتبلغ تلك الصيحة ذروتها حين تقول : أفإن لم تكن جنة ولانار لم يعبد الله أحـد ولم يطعه أحد ؟

والحق الذي لامراء فيه أن هذه كلها لفتات لرابعة قل أن يسبقها اليها في الإسلام سابق . إنها تعبد الله عبادة الأحرار المحبين . عبادة صافية صفاء قلبـــها الزكـــي الطهور ، تحبه وتعبده وتطيعه وتقدس له ، لأنه تعالى جديـــر بـــالحب والعبـــادة

والطاعة لذاته لجلالة لكماله لآياته لصفاته   ألسنا عبيده ؟ ألسنا خلقه ؟ أليس كل ما ننعم به من فيض وجوده . وتمضى القرون قبل أن نحصى ثناء عليه سبحانه . ذلك هو نهج رابعة الروحى ، نهج يطلق الروح فى العبادات فتغدو مضيئة حارة ، لاتعرف الجمود والتزمت ، ولا تميل إلى السبح الفلسفى ، والتعقيد الفكرى ، والأقيسة الكلامية. نهج يحبب الإيمان إلى القلوب ، ويستهوى بفطرته النفوس وتجد فيه كل جارحة هداها،   نهج يبغى الكمال فى كل عمل ويشاهد فيه الحيارى شاطئ الأمان ونور اليقين . ويضع الدنيا حيث أرادها الله طريقا للآخرة .

أيبقى الإنسان طينة من حمأ مسنون ، يعب من الشهوات ، ويقتات بقوت الحواس ، أم يقبل على روحه وقلبه ، وفيهما سر الله فيتخذ منهما معراجا يسمو به إلى الأفق الأعلى ؟

حقا: إنه لا سبيل الى التسامى ورضاء الله ومحبته إلا بأن يقهر الإنسان النفس ويرجع بها إلى الفطرة الزكية (فطرة الله التى فطر الناس عليها).(وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون).

وبذلك تكون هذه المجاهدة والتصفية والتنقية هى الأديان كافة بل هى السطر الأول من رسالة محمد صلى الله عليه وسلم " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ".

وبذلك أيضا يكون التصوف – على هذه الصورة – هو الحارس الأمين على النبع القدسى ، والغاية الكبرى من كل الرسالات .

يقول فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود فى مقدمته لكتاب المنقذ من الضلال :

" الواقع أن التصوف لايعدو أن يكون جهادا عنيفا ضد الرغبات ليصل الإنسان إلى السمو أو إلى الكمال الروحى ليكون عارفا بالله . وليس من الحتم أن يكون من عناصره فكرة الاتحاد أو الوحدة والفناء فى الله ".

ثم يقول : إذا كان ذلك ليس من عناصر التصوف اللازمة له ، وأن عنصره الأساسى كما يتضح ذلك من تاريخ الصوفية المحاسبى أو الغزالى أو رابعة العدوية أو كثير غيرهم ليس إلا جهادا لرضاء الله وتزكية النفس حتى تعرف الله به إذا كان الأمر كذلك فإننا نعتقد ولسنا فى ذلك الرأى من المجددين أن محمدا

رسول الله . كان أول صوفى فى الإسلام " وأختتم هذا المقام مقام المحبة بكلمات لرابعة تعبر عن المقامات الروحية وذلك فى الآتى :

تقول رابعة وهي تناجي ربها :

" يارب اجعل النار لأعدائك . والجنة لأحبابك . وأما أنا فسحبى أنت "

وتقول " عبدة " وهى التى لازمت رابعة طوال حياتها " كانت لرابعة أحوال شتى . فمرة يغلب عليها الحب . ومرة يغلب عليها الأنس ومرة يغلب عليها الخوف . ومرة يغلب عليها البسط . فسمعتها فى حال الحب تقول :

حبيبى ليس يعدله حبيب	ولا لسواه فى قلبى نصيب
حبيبى غاب عن بصرى وشخصى	ولكن فى فؤادى لا يغيب

وسمعتها فى حال الأنس تقول :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى	وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانسى	وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

وسمعتها فى حال الخوف تقول :

وزادى قليل ما أراه مبلغى	أللزاد أبكى أم لطول مسافتى
أتحرقنى بالنار يا غاية المنى	فأين رجائى فيك أين مخافتى

وسمعتها فى حال البسط تقول :

يا سرورى ومنيتى وعمادى	وأنيسى فى وحدتى ومرادى
أنت روح الفؤاد أنت رجائى	أنت لى مؤنس وشوقك زادى
أنت لولاك يا حياتى وأنسى	ما تشتت فى فسيح البلاد
كم بدت منة وكم لك عندى	من عطاء ونعمة وأيادى
حبك الآن بغيتى ونعيمى	وجلاء لعين قلبى الصادى
إن تكن راضيا على فإنى	يا منى القلب قد بدا إسعادى

فاذا انتشت رابعة بالرحيق المختوم من ينابيع الرضا سمت محلقـــة لترسـل البصر خاطفا إلى الحقيقة المجردة ، فترى الكون كله فى حدقة عينها المبصرة ، أو حدقة قلبها المجلوة ، شيئا هينا لا وزن له ولا خطر . فترسل لحنها الخالد مناجيـة الحبيب الكريم :

فليتك تحلـو والحياة مـريرة	وليتك ترضى والأنــام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامـر	وبينى و بين العـالمين خـراب
إذا صح منك الود فالكـل هين	وكل الذى فـوق التراب تـراب

الحب وصوره عند رابعة

لقد استطاعت رابعة أن تجعل من كلمة المحبة صورا فاتنة ساحرة قريبة إلـى كل قلب . كما استطاعت أن تقرب إلى خيالنا وتصوراتنا أقدس معانى الحب . لقد طلعت رابعة على الناس بصورة (الحب للهوى) لذات الحب . ثم أضافت إلى تلك الصورة لونا آخر هو الحب لذات المحبوب) لا للهوى . ومعنى هذا أنها مزجـت بين غايتين كلتاهما فى مقام الفناء .

ثم أضافت إليها صورة ثالثة هى أدق وأرق . فالحبان العظيمان نشآ عن مشاهدة بعين البصيرة فى الدنيا وهى مقدمة حتمية للمشاهدة بجارحة العين فـى الآخـرة . فحب رابعة على هذا هو حب عين اليقين . والفضل فى ذا وذاك لرب العالمين .

تقول رابعة فى نجواها لربها :

أحبك حبين حب الهوى	وحبا لأنك أهل لذاك
فأما الذى هو حب الهوى	فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت الذى أهل له	فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولاذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وهذا اللحن بلا ريب قد أحدث دويا فى عالم الروحانية الإسلامية . فقد شغل أئمة التصوف قرونا ، وتفتحت أمامهم آفاق وينابيع عكفوا عليها تذوقا وتعقيبا .

ولقد أفرد أبو طالب المكى صاحب (قوت القلوب) أكبر وأقدم الكتب الصوفية فصلا طويلا لشرح لحن رابعة وتبيينه فقال :

" فأما قولها حب الهوى " وقولها حب أنت أهل له وتفريقها بين الحبين فإنه يحتاج إلى تفصيل حتى يقف عليه من لا يعرفه ، ويخبره من لم يشهده . وفى تسميته ونعت وصفه إنكار من ذوى العقول ممن لاذوق له منه ولاقدر له به . ولكنا نجمل ذلك وندل عليه لم يعرفه .

معنى حب الهوى . أى رأيتك فأحببتك عن مشاهدة اليقين . لا من خبر وسمع تصديقا من طريق النعم والإحسان ، فتختلف محبتى إذ تغيرت الأفعال لاختلاف ذلك على . ولكن محبتى من طريق العيان ، فقربت منك ، وهربت إليك ، فاشتغلت بك لما تفرغت لك كما قال المحب :

فرغت قلبها اشتغالا بذكرى	وكذا كل فارغ مشغول

وعلى هذا المعنى قوله تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) أى ملآن بذكره حتى فاض ، فكادت أن تظهره فتقول : هو ابنى . فعبر عن الملء بالفراغ من ضده لولا أن أولينا عليه بربطه ، فكظمت . ولو لم تفعل لأظهرت ولو أظهرت لقتل .

وأما الحب الثانى : الذى هو أهل له فيعنى حب التعظيم والإجلال لوجه العظيم ذى الجلال .

تقول: ثم إنى بعد ذلك لا أستحق هذا الحب ، ولا أستأهل أن أنظر إليـــك فـــى الآخرة على الكشف والعيان فى محل الرضوان . لأن حبى لك لا يوجب لك جزاءا عليه بل يوجب على كل شئ مما لا أطيقه ، ولا أقوم بحقك فيه أبدا ، إذا كنت قـــد أحببتك فلزمنى خوف التقصير ، وجب على الحياء من قلة الوفاء ، والخوف لمـــا تعرضت به من حبك إذ ليس كمثلك شئ كما قال المحب :

أصبحت صبا ولا أقـــــول بمن خوفا لمـــن لا يخـــاف من أحـــد

إذا تفكـــرت فى هـــــــواى لـــه لمست رأسى هل طار عن جسدى

لولا أن الحب ينطق والوجد يحرق ، فالمحب لا يلام لغيبة التنفس عنه . ورابعة تقول : فتفضلت على بفضل كرمك ، وما أنت له أهل من تفضلك فأريتنى وجـــهك عندك أخرا كما أريتنيه اليوم عندك أولا. فلك على ما تفضلت به فى ذاك عنـــدى فى الآخرة، ولا حمد لى فى ذا هاهنا ، ولاحمد لى فى ذاك هناك . إذا كنـــت أنـــا وصلت إليهما بك، فأنت المحمود فيهما ، لأنك وصلتنى بهما . فهذا الذى فســـرناه هو وجد المحبين الحقيقيين .

ثم يستطرد صاحب القوت شارحا لبيت رابعة الأخير فيقول :

" إن الله تفضل على رابعة فأراها وجهه عنده آخرا . كما أراها وجهه عنده ذلك اليوم أولا: ومعنى ذلك : أن الله تعالى قد تفضل عليها فى هذه الحياة الدنيا بمعاينـــة سبحات وجهه([1]). وكذلك سيتفضل عليها برؤيتها فى الآخرة . فكـــأن قولـــها (ذا) يشير إلى المعاينة فى الدنيا . وقولها(ذاك) يشير الى المعاينة فى الآخرة . ثم إنها لا ترى لنفسها فضلا فى هذين الأمرين بل لله وحده الفضل فى كليهما وله وحده الحمد على كليهما . لأن الظفر بهما كان عن طريقه ".

وإنه لمن الجميل أن نورد هنا تعقيب الغزالى على أبيات رابعة فـــى "الإحيـــاء" حيث يقول :

---

[1] يفهم من شرح (صاحب القوت) أن رابعة رأت الله تعالى فى الدنيا وهذا يتعارض مع علمنا بأن رؤية الله فى الدنيا لم تقع إلا لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ولعلها أرادت بـــ(حب الهوى) حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظـــوظ العاجلة وبــ(حبه لما هو أهل له) الحب لجماله وجلاله الذى أنكشف لها وهو أعلى الحبين " .

وأختتم هذا بما جاء فى تفسير المنار([1]) عند شرحه للآية الكريمة (والذين أمنوا أشد حبا لله) حيث نجده يقول :

" وللصوفية الشرعيين فى حب الله منازل عالية ، ومقامات راسخة ، ومعـــارف واسعة فى حب كل شئ ، بحب الله . قالت رابعة العدوية رحمها الله .

أحبك حبين حب الهوى الخ.

ثم عقب بقوله " والذى نفهمه من هـــذا الشـــعر : أن الحـــب الأول هـــو حـــب العبودية،وهو حيرة شاغلة عن كل ما عداها . والثانى : حب المعرفـــة ، وغايتـــها رفع الحجب الكثيرة المانعة من كمالها إلى أن تكمل بكرامة الرؤية فى الآخرة .

وقد روى عن الإمام "عبد القادر الجيلى" رحمه الله ، أنه كان كلمـــا ولـــد لـــه ولد،يكبر أربع تكبيرات كتكبيرات صلاة الجنازة ، ويقول مـــا معنـــاه إنـــه يعـــده كالميت،حتى لا ينازع حبه حب الله تعالى فى قلبه . ثم يستطرد فيقول : " وما فقـــد المسلمون السيادة فى الدنيا والاستعداد لسعادة الآخرة إلا بالحب المـــادى لأنفســـهم وشهواتهم . وإيثاره على حب الله ورسوله الذى هو مناط سعادتهم ". وهكذا كشـــفت رابعة للناس عن المحبة وصورها بأضوء الكلمات وأطيب الألحان . وهكذا كـــانت تقول وهى ساجدة :

((سيدى بك تقرب المتقربون فى الخلوات . ولعظمتك ســـبحت الحيتـــان فـــى البحار الزاخرات . ولجلال قدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات . أنت الذى ســـجد لك سوادى وكل شئ عندك بمقدار لأنك الله العلى القهار)) .

وبهذا تكون رابعة العدوية قد استطاعت وحدها أن تفتق كلمة المحبـــة لتخـــرج منها ألوانا وصورا فاتنة ساحرة قريبة إلى كل القلوب .

([1]) الجزء العاشر ص ٨٨

وبهذا أيضا: تكون رابعة رائدة الحب الإلهى . بل هى أول من تغنت بنغمـــات الحب الإلهى فى رياض الصوفية .

الفناء الكامل فى الله بلا واسطة هو معراج رابعة

نستطيع أن نقول : أن المعارج الصوفية تتعدد بتعدد أصحابها . فلكل صوفى معراجه الذى يصعد عليه . تشبها بالمعراج الأكبر لمحمد صلى الله عليه وسلم .

غير أن الإسراف فى الحديث عن هذه المعارج ليس من طبيعة المتصوفة . بل هى عندهم سر مصون ، يتعمدون إخفاءه ، لأن هذه المعارج مقامات أشبه بالكرامات . والصوفى يستحى من الكرامة . لأنه لا يرى نفسه ولا يركن إلى عمله فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن .

ولا شك أن هذه المعارج مبنية على طريقة الوصول . وطرق الوصول تتعدد بتعدد الأفراد كما أن المعارج كذلك وإن كانت جميعها تقوم على بابين عظيمين هما فى الحقيقة باب واحد . وإن اختلف اللون والذوق تبعا لاختلاف القلوب والأرواح . يقول الدكتور عبد الحليم محمود فى مقدمة كتاب المنقذ من الضلال فى معرض حديثه عن الطريقة والحقيقة (وإذا رجعنا إلى الصورة الرمزية (الدائرة ومركزها) قلنا : إن الطريقة هى الخط الذاهب من الدائرة إلى المركز . وكل نقطة على الدائرة هى مبدأ الخط ، وهذه الخطوط التى لا تحصى تنتهى كلها إلى المركز . إنها "طرق" وهى طرق تختلف تبعا لاختلاف الطبائع البشرية . ولهذا يقال " الطرق الى الله كنفوس بنى آدم ".

ومهما اختلفت فالهدف واحد ، لأنه لا يوجد إلا مركز واحد ، وإلا حقيقة واحدة. على أن هذه الاختلافات الموجودة فى المبدأ تزول شيئا فشيئا مع زوال الأنية وذلك حينما يصل السالك إلى درجات عليا تزول فيها " صفات العبد " التى ليست إلا سجنا " الفناء " فلا تبقى إلا الصفات الربانية " البقاء " والطريقة والحقيقة مجتمعتان يطلق عليهما "التصوف" وهو ليس مذهبا خالصا لأنه الحقيقة المطلقة . وليست الطرق مدارس مختلفة لأنها طرق أى : سبل موصلة جميعها الى الحقيقة المطلقة "التوحيد واحد ".

ثم يعرف المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود الصوفى فيقول :

" ويجب أن نلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفى ، اللهم إلا إذا كان ذلك منه جهلا محضا ، لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفى . وذلك لأن هذه الصفة (سر) بين الصوفى وربه ولكن الصوفى بمعناه الحقيقى لا يطلق إلا على من بلغ درجات عليا ".

أعود فأقول: إن طرائق الوصول ترتكز على با بين هما فى الحقيقة باب واحد:

الطريقة الأولى : هى رؤية الله بلا واسطة من نبى أو رسول .

ومعنى الرؤية أن الصوفى هنا يتجه بكل حبه وأشواق قلبه إلى الله جل جلاله مباشرة .

والطريقة الثانية : اتخاذ الرسول صلى الله عليه وسلم معراجا يوصل إلى الله والصوفى هنا يصل إلى غايته الكبرى عن طريق محبة رسول الله ومحبة الرسول سبب فى محبة الله.

يقول محى الدين بن عربى :

(السائرون إلى الله بعزائم الأمور المشروعة إلى قسمين : طائفة ربطت همتها على أن الرسول إنما جاء منبها ومعلما بالطرق الموصلة جناب الحق ، فاذا أعطى العلم بذلك زال من الطريق وخلى بينهم وبين الله ، فهؤلاء إذا سارعوا أو سابقو إلى الخيرات لم يروا أمامهم قدم أحد من المخلوقين ، لأنهم قد أزالوه من أنفسهم وانفردوا إلى الحق تعالى .

والطائفة الأخرى جعلوا فى نفوسهم أنهم لا سبيل إليه تعالى إلا والرسول هو الحاجب . فلا يشهدون أمرا إلا رأوا قدم الرسول بين أيديهم) .

والحالة الأولى هى حالة العارف عبد القادر الجيلانى- وأبو مسعود بن شبل ورابعة العدوية . ومن على شاكلتهم .

وما أشبه الحالة الأولى فى نظر المتصوفة بأبى بكر الصديق رضوان الله عليه فإنه عند وفاة الرسول وهو أقرب الناس وأحبهم إليه ، لم تذهله الكارثة لأنه كان

دائما أبدا ينظر إلى ربه ومولاه مكاشفة بلا حجاب ولهذا هتف من أعماقه " من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات . ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ".

وأما الحالة الثانية فهى حالة عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فهو مـــع قـــوة إيمانه وجلال كماله . كانت شخصية الرسول تملأ عليه آفاقه وتملك فؤاده . فكـــان يرى الله تعالى من خلالها . فلما لحق الرسول بالرفيق الأعلى ، صعق عمر وأحس بالفراغ الهائل يطويه . فهتف فى ذهول " لقد ذهب محمد ليلقى ربـــه كمـــا ذهـــب موسى ، وسيعود ليضرب أعناق قوم زعموا أنه مات . ثم سل سيفه صارخا : والله لو سمعت رجلا يقول إن محمدا قد مات لعلوته بسيفى هذا حتى سمع الصديق يقول : وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل " ثاب إلى نفسه وقـــال : لكـــأنى أسمعها الآن . ولقد كانت تتلى علينا من قبل . لأبى بكر إيمانه ومعراجه . ولعمـــر إيمانه ومعراجه الذى يتسق مع أشواق قلبه والهامات روحه ".

فالحالتان وإن اختلفتا فى الظاهر فهما متفقتان فى الباطن . فأبو بكـــر رأى الله بلا واسطة أى أتجه بقلبه إلى الله مباشرة مع حبه الشديد لرسول الله . وعمر رأى الله عن طريق رسوله وحبيبه ، ورسول الله هو الباب الموصل إلى الله . فالفناء فى الرسول فناء فى الله (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله).

ومن هنا نقول :

لقد كان معراج رابعة الفناء الكامل فى الله بلا واسطة على هذا النحـــو الـــذى ذكرناه . كانت بروحها وحواسها ولوعة قلبها متعلقة بمولاها تعلقا أذهلها عن كل ما سواه .

وليس معنى هذا كما يتبادر إلى عقول خصوم التصوف أن رابعة كانت فاترة الحب للرسول صلوات الله وسلامه عليه . فمحبة الرسول هى الكلمة الثانيـــة فـــى الإسلام بعد التوحيد . بل هى باب التوحيد والموصلة إليه . ومما لاجـــدل فيـــه أن المسلمين يحبون الرسول الحب كله . إلا أن المتصوفة خاصة يحبون الرسول حبـــا فوق حب الناس كافة . بدليل اقتدائهم الكامل بآدابه وأخلاقه ومعاملاته وتعبداتـــه . والحب إذا لم يصدقه العمل فهو كاذب . لقد كان خلق رسول الله القرآن كما تقـــول

عائشة . ولذا وجدنا الصوفية يحبون الرسول حبا صادقا. فكانت أخلاقهم وآدابهم تكاد تقترب من أخلاقه وآدابه عملا بقوله تعالى : لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ".

روى المناوى فى الكواكب الدرية

" كانت رابعة تصلى الف [1] ركعة فى اليوم والليلة فقيل لها : ما تريدين بهذا . قالت لا أريد به ثوابا ، وإنما أفعله لكى يسر به رسول الله يوم القيامة فيقول للأنبياء :انظروا إلى امرأه من أمتى هذا عملها ".

وسئلت رابعة: كيف حبك للرسول صلوات الله وسلامه عليه قالت: إنى والله أحبه حبا شديدا ، ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوقين ".

هذا هو معراج رابعة ونهجها ، نرى فيه حب الله يحجب كل حب مهما عظم،كما نرى فيه طريقا لمعرفة الله والتعرف عليه . لقد كانت رابعة تنفذ من ظواهر الأفعال والصفات التى يقف عندها كثير من العابدين والعارفين الى باطن الحقيقة . فعرفت الله جل جلاله أولا كما يقول محى الدين بن عربى عنها ثم عرفت صفاته ثانيا.

وهذا أدق دقائق التصوف وأسمى ذراه . لأن العبادة هنا على يقين المشاهدة ولهذا : كان حبها أقوى حب عرفه أهل العبادة والمعرفة . وعليه ينبنى الإلهام ويقوم الكشف ، ويأتى الفيض . وبقدر ما يصل العارف إلى هذا المعراج يكون مقامه من المنح والعطايا اللدنية الإلهية .

وفاة رابعة وانتقالها من دار الفناء الى دار البقاء :

لقد عاشت رابعة طوال حياتها المباركة مجاهدة فى الله ولله ، فهداها ربها سبله وألهمها طريقه . وأفاض عليها من لدنه رحمة وعلما . عاشت زاهدة عابدة تنير الطريق بكلمة الحب . وتدعو الناس إلى تذوق تلك الكلمة التى تملأ الدنيا أنسا ورضا وتملأ القلوب علما ومعرفة .

([1]) من الأقوال المأثورة (أن العدد لا مفهوم له) والمقصود أنها كانت تصلى كثيرا .

ولقد بارك الله لها فى عمرها فعاشت وعمرت وأزهرت حياتها ، فتكونت حولها مدرسة الروحانية الإسلامية ، التى ستظل على مدى التاريخ أكبر منارات الإلهام والمعرفة الإنسانية .

كانت رابعة أستاذة لهذه المدرسة الربانية بأخلاقها وأعمالها وكلماتها ، وما تشع حولها من نور ويقين . وكان هذا كله فى لحن من الإيمان والتقوى فى غير تعقيد ولا التواء . لحن السمو والرفعة بكل قوى القلب والنفس إلى فاطر الأرض والسماء.

تحدث محمد بن عمرو فقال :

" دخلت على رابعة وكانت عجوزا كبيرة بنت ثمانين سنة كأنها الشن ، تكاد تسقط ورأيت فى بيتها كراحة بوارى . ومشجب قصب فارسى ، طوله من الأرض قدر ذراعين ، وكوز ، ولبد هو فرشها ، وهو مصلاها . وكانت إذا ذكرت الموت انتفضت رعدة ، وإذا مرت بقوم عرفوا فيها العبادة . وقال لها رجل: ادعى لى . فالتصقت بالحائط وقالت : من أنا يرحمك الله . أطع الله ربك وأدعه فانه يجيب المضطر "

وقال سلام الأسود :

" نظرت إليها فى يوم شديد الحر فقالت : اسكت . عند المبلغ يفرح الوارد ون. وعند العرض تنقطع الأسباب . وعند قوله "خذوه" تنشر أعلام العارفين ".

قالت عبدة خادمتها :

" ولما حضرت رابعة الوفاة دعتنى فقالت : يا عبدة لا تؤذنى بموتى أحدا ولفينى فى جبتى هذه . قالت: فكفناها فى تلك الجبة وخمار صوف كانت تلبسه ".

لقد كانت رابعة زاهدة حتى عند وفاتها . إنها لا تريد أن تشغل الناس بشأنها . ولكن الله سبحانه وتعالى أكرمها فأرسل اليها طائفة من الصالحين جلسوا حولها والروح فى وداع . ثم أكرمها سبحانه مرة أخرى كرما أعظم وأبقى فأرسل إليها من رحمته رسلا للبشرى .

تقول دائرة المعارف الاسلامية :

وحينما حضرتها الوفاة أحاط بها نفر من الصالحين فقـــالت لـــهم : انـــهضوا واخرجوا دعوا الطريق مفتوحة لرسل الله تعالى . فنهضوا وخرجوا . فلما أغلقـــوا الباب سمعوا صوت رابعة وهى تقول الشهادة فأجابها صوت " يـــا أيتـــها النفـــس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ".

حقا ما أسعدها لحظات تلك التى تسمع فيها رابعة هذا الصوت . لقد آن لك يـــا رابعة أن تنعمى وتسعدى نعيما لا يفنى وسعادة لا تزول . ادخلى بل اصعدى الـــى الأفق الأعلى مع عباد الرحمن . وانعمى بجنة عرضها السماوات والأرض أعـــدت للمتقين .

قالت خادمتها عبدة : " رأيت رابعة بعد موتها بسنة أو نحوها فى منامى عليـــها حلة من إستبرق وخمار من سندس أخضر لم أر شيئا أحســـن منـــه . فقلـــت : أى رابعة: ما فعلت بالجبة التى كفناك فيها والخمار الصوف . قالت : إنه والله نـــــزع عنى وأبدلت به هذا الذى ترينه على . وطويت أكفانى . وختم عليها . ورفعت فـــى عليين ليكمل لى بها ثوابها يوم القيامة . قالت : فقلت لها : لهذا كنت تعملين أيـــام الدنيا . فقالت : هذا عندما رأيت كرامة الله لأوليائه . قالت فقلت: مرينـــى بـــأمر أتقرب به إلى الله عز وجل قالت : عليك بكثرة ذكره أوشك أن تغتبطى بذلك فـــى قبرك ".

وهكذا انتقلت رابعة الى الرفيق الأعلى مع الشهداء والأبرار والصديقين بجـوار مليك مقتدر . بجوار الحبيب الأعظم قرة عينها وأنس فؤادها وسر حياتها . انتقلـت إلى الخلود بعد أن تركت فى الإسلام كما يقول ما سنيون :

" أريجا من الولاية وعطرا من الحب لن يتبخرا ولن يزولا ".

لقد انتقلت رابعة الى جوار ربها وكانت وفاتها بالبصرة ســـنة ١٨٠ أو ١٣٥ هـــ. تبعا للاختلاف السابق فى تاريخ وفاتها .

(مكانة رابعة فى التصوف الإسلامى)

لقد سبق أن أشرنا إلى رواية العطار من أن رابعة اشتغلت بالعزف على الناى بعد تحررها من عبودية الرق .

إلا أن دائرة المعارف الإسلامية : تطالعنا بما يتعارض مع رواية العطار . حيث نجدها تقول:

" إن رابعة أقامت أول أمرها بالصحراء بعد تحررها من الرق . ثم انتقلت إلى البصرة حيث جمعت حولها كثيرا من المريدين والأصحاب الذين وفدوا عليها لحضور مجالسها . وذكرها لله والاستماع إلى أقوالها . وكان من بينهم (مالك بن دينار والزاهد رباح القيسى . والمحدث سفيان الثورى والمتصوف شقيق البلخى)".

ونحن نلاحظ أن ما أفادته رواية دائرة المعارف الاسلامية من أنها عاشت فى الصحراء بعد تحررها من الرق مباشرة هو محل إجماع رجال التاريخ وكتاب التراجم والطبقات .

وعلى ذلك فرواية دائرة المعارف تتعارض مع رواية العطار .

وسواء أخذنا بهذه أو بتلك . فإن الإجماع التاريخى منعقد على أن رابعة عند عودتها إلى البصرة وهى فى ريعان شبابها . غدا مجلسها ملتقى ومنتدى لأئمة العلماء وكبار العباد فى عصرها كما أوضحت ذلك آنفا .

وأن مجلسا يلتقى فيه مالك بن دينار ، وسفيان الثورى ، ورباح القيسى وشقيق البلخى . لهو مجلس يحفه الملأ الأعلى . وتتناثر فيه أحاديث صاعدة إلى آفاق المعرفة . وتترقرق فيه أرقى آيات التفكير والتعبد والذكر والمناجاة . فلقد انتهى إلى هؤلاء الأربعة علم عصرهم . كما اتسمو جميعا بالزهد والتقوى والترفع عن الدنيا .

كما أنعقد الإجماع التاريخى على أن رابعة كانت أستاذة هذه المجالس وروحها وصاحبة الكلمة العليا فيها .

وهذا وحده برهان واضح على مكانة رابعة وعلو شأنها فـــى العلــوم النقليـــة والعقلية والروحية ، حيث ضمت مجالسها عباقرة هذه العلوم على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم .

ولاخلاف بين رجال التاريخ أيضا على أن رابعة هى التى وجهت هؤلاء جميعا إلى الأفق الروحى ، الذى تميزت به وعرف عنها . أفق الأنس والرضا والمحبة .

لقد كان الزهد هو طابع الحياة التعبدية الروحية قبل رابعـــة . وكـــان الأفـــق الروحى لهذا الزهد محدودا تقوم فلسفته على التحلل من الدنيا والزهد فـــى متعـــها تحت صيحة الخوف من عذاب الله وبريق الأمل فى جناته . حتى أن كلمة المحبـــة وهى العنوان الأكبر للروحانية الإسلامية بما يتفجر من ينابيعها من فيض وكشـــف ومعرفة وإلهام لم تعرف بمعانيها الروحية قبل رابعة .

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن دور رابعة فى التصوف كان من أخطر الأدوار.

فهى الصورة الأولى فى الطريق . وهى أول منارة أرسلت الشـــعاع الروحـــى لتنتعش به الفضائل الخلقية والنفسية . والموا جيد القلبية والروحية .

ولكى ندلل على ما نقول من مكانة رابعـــة ، علينـــا أن نســـتعرض الخطـــوط الرئيسية للمعارف الصوفية عند الصفوة المختارة من رجال الروحانية الإســـلامية . وبعدها سنجدهم جميعا يمشون تحت ظلال رابعة ويعيشون على نبعها .

يقول الدكتور مصطفى حلمى فى دراسته لحياة ذى النون المصرى فى دائـــرة المعارف الاسلامية :

" وكما كانت رابعة تذهب فى حبها الإلهى مذهبا قوامه الإقبال على الله، وإيثاره على كل من عداه . والتنزه عن عبادته لاخوفا من ناره أو طمعا فى جنته . بحيـــث كانت غايتها القصوى هى أن ينكشف عن قلبها عين الحجاب ، فتستمتع بما يبيحـــه الله لها من مطالعة وجهه الكريم . فكذلك كان ذو النون يذهب فى حبه هذا المذهـــب الذى جعله يتخذ من الله غايته ومعقد رغبته . وكما سبق أن أشرنا فقد كانت رابعـــة تناجى ربها بقولها " إلهى إذا كنت أعبدك رهبة من النار فأحرقنى بنار جهنم . واذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنيها . أما إذا كنت أعبدك من أجل محبتك فـــلا

تحرمنى يا إلهى من جمالك الأزلى " وكانت تتحدث عن حبها الإلهى فتقول " إنها لم تكن تعبد الله إلا حبا له وشوقا إليه .

وهذا ما يعبر عنه " ذو النون " تعبيرا وإن اختلف فى بعض تفاصيله عما ذهبت إليه رابعة ، فهو يظهر لنا من غير شك أن الفكرة الرئيسية التى انطوى مذهبه فى الحب عليها والغاية القصوى التى كان يرمى من هذا الحب إليها ، إنما هى حب الله لذاته والإقبال عليه ابتغاء وجهه ، دون أن يكون له من وراء ذلك مطمع آخر "

ويقول الدكتور بدوى فيما ترجمه عن ما" سنيون " فى كتابه شطحات الصوفية متحدثا عن الجولات الروحية لأبى اليزيد : فأبو اليزيد رجل استهلك فى شهود جلال الحق . وذهل من رؤيته لنفسه . وغلبه حال السكر . فنطق بما أجراه المحبوب على لسانه . وما نطق به يرمى إلى تجريد الأمور الدينية عن كل ما يشعر به الحس فيها كما هو الشأن عند رابعة العدوية ".

ويستطرد الدكتور بدوى فى كلامه إلى أن يصل إلى الشبلى فى كلماته التجريدية " اللهم إن كنت تعلم أن فى بقية لغيرك فاحرقنى بنارك لا إله إلا أنت ". وقوله: " لو خطر ببالى أن الجحيم بنيرانها وسعيرها تحرق منى شعرة لكنت مشركا " .

ويعلق الدكتور بدوى على هذه الكلمات مترجما عن ما سنيون قائلا فى(شطحات الصوفية): فالتجريد ظاهر فى حديثه عن الجحيم . وهو يرى أنها لا يمكن أن تؤثر فيه فلن تحرق منه شعرة وتفسير ذلك . أن كل شئ من الله فلو جمعنا للنار هذه القوة للإحراق لأشركنا مع الله شيئا آخر . وهو لا يرى النار إلا فى القطيعة أو إعراض الله عنه فهذا هو الجحيم الحقيقى بالنسبة إلى العابد كما قال السراج . وعدم احتفاله بالنار يجعله يطلب أن يلقى به فيها . ذلك لأن عباد الله الصديقين لا ينشغلون بالنار فماذا يهمهم إذن من أمرها ؟.

وكل هذه العبارات إنما قصد بها إلى تجريد النار من كل معنى حسى ، وردها إلى المعانى الباطنية العالية التى لا يخالطها شئ من الحسية . وهو بهذا إذا : إنما

يتابع نفس التيار الذى بدأته رابعة العدوية وأفضى به إلـى ذروتـه أبـو الـيزيد البسطامى .

إن التجريد الحسى للأشياء ذروة من ذرا الفهم الصوفى الدقيق . وأفق توحيـدى لا يسمو سموه إلا أهل الذوق والشم من المؤمنين . إن الله سبحانه هو الأول والآخر والظاهر والباطن . إنه سبحانه هو القوة الكامنة وراء كل شئ ، وهو تبارك وتعالى المؤثر فى كل شئ .

فليس فى الماء رى إلا بقدرة الله لا بقدرة الماء . وليس فـى الخـبز شـبع إلا بمشيئة الله وأمره . والنار لا قوة لها بذاتها على الإحراق .

ولو جعلنا لكل شئ من مظاهر الكون قوة ذاتية قائمة فيه لبعدنا عـن التوحيـد الحق ، وسقطنا فى نطاق الشرك . والكمال كل الكمال أن نرجع السبب والقوة إلـى الله يقول سبحانه وتعالى فى محكم آياته " وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون".

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم " إياكم وخفى الشرك. قالوا وما هـو يـا رسول الله . قال: دقيق الرياء ".

ذلك هو نهج التصوف فى التوحيد . وهو نهج بدأته رابعة . وسرى من بعدهـا إلى قلوب المتصوفة وعقولهم . حتى أصبح مدرسة كبرى يتمـيز بـها التصـوف ويزهو. وإن هاجمه المهاجمون .

يقول الحلاج فى مناجاته :

" أنا بما وجدت من روائح نسيم حبك ، وعوا طر قربك ، أسـتحقر الراسـيان وأستخف الأراضين والسماوات. وبحقك لـو بعـت منـى الجنـة بلمحـة مـن وقتى،أوبطرفة من أحر أنفاسى لما اشتريتها. ولو عرضت على النار بما فيها مـن ألوان عذابك لأستهونتها فى مقابلة ما أنا فيه من حال استتارك عنى "

حقا إنها صيحة المحب الغارق فى النشوة . وإنه لجرس رابعـة يجلجـل فـى كلمات الحلاج . الحب لذات المحبوب لا للجنة والنار . إنه لجرس رابعة وهتافها .

القرب من الله أعذب من جنات النعيم . والبعد عنه أشد من اللهب المستعر فى الجحيم .

ولقد وصف الله المؤمنين فى الآخرة بقوله : (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) قيل فى تفسيرها . الحسنى هى الجنة . والزيادة هى رؤية وجهه سبحانه وتعالى .

ويقول نيكلسون فى دراساته عن الصوفية فى الإسلام :

" لقد رسمت رابعة معالم الطريق فاندفع الموكب الصوفى يسير فى سرعة خاطفة على نهجها فى الحب والمعرفة ".

يقول ما سنيون " لقد كان دور رابعة حاسما ، فعلى وقع خطواتها سار ابن الغارض وجرى الحلاج "

ومن هذا كله نستطيع أن نجزم بأستاذية رابعة للتصوف الإسلامى . وتلك حقيقة ناصعة . فلقد كانت فى غير جدل الصورة الأولى على الطريق ، والمنارة المشعة لكل سائر وسالك . والإمام الملهم لكل محب وعارف . على حدائها سارت القافلة وعلى مواقع خطواتها سار موكب الصوفية مفعما بالإيمان .

وإنه لمن العجيب حقا أن نرى رابعة بهذه المكانة الجليلة فى التصوف الإسلامى ثم لا نرى لها حظا من عناية رجال الاستشراق مثل ما كان للحلاج والبسطامى . غير أننا سوف لانجد عناء فى معرفة سر ذلك . ولعل السر فى هذا أنهم عجزوا عن أن يجدوا فى كلمات رابعة الصريحة متنفسا للتأويل والتشكيك كما هى عادة أكثرهم .

وهناك سر آخر له خطورته وهو : أن رابعة قد حيرت رجال الاستشراق فمنهم أصحاب الرأى القائل : بأن التصوف ليس بإسلامى الألحان . وأن مادته الروحية مستعارة من روح اليونان وفلسفة فارس . وزهد الهند .

وجاءت رابعة عربية من البصرة وليست من خراسان حيث الآرية الفارسية . والهندية . وليست فى الشام أو مصر حيث الأفلاطونية الحديثة كما تعودوا أن يقولوا .

ومن المعروف أن رابعة نشأت فى ختام القرن الأول الهجرى أى قبل زحف الثقافات الأجنبية على الثقافة الإسلامية فمن أين جاءت لها فكرة الحب الإلهى ؟ ومن أين هبطت عليها تلك المواجيد القلبية ؟

هذا وبالله التوفيق ،

الخاتمة

نستطيع بعد هذا العرض أن نخرج بالنتائج العامة التالية :

١- إن الحياة الروحية الإسلامية قد وجدت فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم وفى كتاب الله وسنة رسوله مصدرها الأول ، الذى استمد منه الزهاد زهدهم واستقى منه الصوفية أذواقهم ووجد أولئك وهؤلاء ما يؤيدون به مذاهبهم . مما جعل التصوف علما للأخلاق الإسلامية وجعل الصوفية علماء للأخلاق . وأن رابعة قد انتقلت بالحياة الروحية الإسلامية من الزهد الى المحبة إذ كانت من طلائع الصوفية الذين قالوا بالحب الخالص . الحب الذى لا تقيده رغبة سوى حب الله وحده ، وكانت من طلائعهم أيضا فى جعل الحب مصدرا للإلهام والكشف . وعلى ذلك فكل من اقتفى أثرها فى رسالة المحبة لم يأت بجديد إذا نظرنا إلى الجوهر حتى ابن الفارض شيخ العشاق وإمام المحبين فى عالم الأشواق والمواجيد لم يزد عما قالته رابعة .

٢- يتضح لنا من عرض الروايات التاريخية حول نشاة رابعة أنها عربية أصيلة بإجماع الروايات . وأنها قيسية عدوية رغم محاولات المستشرقين الذين راحوا يتلمسون فى أنساب الصوفية ومنهم رابعة أصولا غير عربية لينفذوا من ذلك إلى أن التصوف الإسلامى ينابيعه فارسية أو هندية أو مسيحية وقد اتضح مما سبق أنها محاولات مبنية على الحدس والتخمين لا على التاريخ والواقع .

٣- أن الحقائق التاريخية تفيد أن رابعة التى نشأت مع النور- كما يقول العطار- والتى حذرت أباها وهى طفلة من طعام فيه شبهة ، والتى كانت لاترفع رأسها إلى السماء حياء من الله تعالى وتصلى فى اليوم الف ركعة كما تقول كتب المناقب إلى غير ذلك . أقول : إن رابعة هذه ليست هى التى تقابل نعمة الله عليها إذ حررها من الرق بفضل صلاحها وتسبيحها ، وما شاهد سيدها من كرامتها على ربها ليست هى التى تحترق فى الشهوات ،

وتقتات بقوت الحواس ، وتغرق فى الإثم حتى الثمالة كما أدعى الدكتور عبد الرحمن بدوى .

٤- يتبين لنا أن المنهج الروحى لرابعة يبدو فى : أن الإنسان لن يصل إلى الله باللسان والجدل والحوار والدعاوى ، ولن يتذوق أنوار المعرفة بالنظر العقلى الفلسفى أو قواعد علم الكلام .

إنما سبيل ذلك يقظة القلب التى تشعل النور فى كل شئ ، فإذا استيقظ رأيت بعين البصيرة الطريق ، وأصبح فى طوقك بالعمل المتواصل واليقين الشامل والشوق الحار أن تصل إلى الغاية الكبرى وهى معرفة الله .

٥- واذا انتقلنا إلى المقامات والأحوال الصوفية لرابعة ، وجدناها تتميز بسمة بينة دائما فى أى مقام أو حال . وهذه السمة هى الرضا الباسم بكل ما يأتى به القضاء والقدر فى غير غضاضة أو ألم ، والتوكل المطلق واليقين الثابت والمراقبة الدائمة ، وفوق هذا كله يتلألأ تاج الحب الإلهى فى أكمل صوره : الحب لذات الله جل علاه ، لا خوفا من عقاب ولا طمعا فى ثواب .

٦- لقد كان معراج رابعة وطريقها إلى الله هو الفناء الكامل فى الله بلا واسطة . كانت بروحها وحواسها ولوعة قلبها متعلقة بمولاها تعلقا أذهلها عن كل ما سواه . وحسبنا فى هذا قول رابعة حينما سئلت : كيف حبك للرسول صلوات الله عليه؟ فقالت إنى والله أحبه حبا شديدا ولكن حب الخالق شغلنى عن حب المخلوق.

٧- وأخيرا انتقلت رابعة الى الرفيق الأعلى مع الشهداء والأبرار والصديقين بجوار الحبيب الأعظم قرة عينها وأنس فؤادها وسر حياتها وكانت وفاتها بالبصرة .

٨- من كل هذا بدت لنا مكانة رابعة فى التصوف الإسلامى ، وبرز لنا بحق أن رابعة التى كان مجلسها يجمع عباقرة العلوم النقلية والعقلية والروحية كانت أول منارة أرسلت الشعاع الروحى لتنتعش به الفضائل الخلقية والنفسية والمواجيد القلبية والروحية فيما تلى العصر الأول من عصور.

ويكفى إشارة إلى أستاذتها أن مجلسها كان يلتقى فيه (مـــالك بـــن دينـــار وسفيان الثورى ورباح القيسى وشقيق البلخى) هؤلاء الذين انتهى إليـــهم علم عصرهم وقد انعقد الاجماع التاريخى على أن رابعة كانت، أستاذة هـــذه المجالس وروحها وصاحبة الكلمة العليا فيها .

وبالله التوفيق ،

المؤلف

الأستـــاذ الدكتـــور

رشدى عزيز محمد

مدينة نصر فى ١٩٩٨/١٢/١٥

الفهرس

أهم المصادر والمراجع

رقم	اسم الكتاب	اسم المؤلف
١	القرآن الكريم	
٢	الحديث الشريف	
٣	تفسير المنار جـ(١٠)	رشيد رضا
٤	المنقذ من الضلال ط٦٢	تقديم الدكتور عبد الحليم محمود
٥	الأخلاق عند الغزالى	الدكتور زكى مبارك
٦	الحياة الروحية فى الإسلام	الدكتور محمد مصطفى حلمى
٧	ابن الفارض والحب الالهى	،، ،، ،،
٨	مدارج السالكين	لأبن القيم الجوزية
٩	دائرة المعارف الاسلامية	إعداد الدكتور عبد الحليم يونس
١٠	منازل السائرين إلى رب	وآخرين
١١	العالمين	أبو إسماعيل عبد الله الأنصارى
١٢	رابعة شهيدة العشق الالهى	الهروى
١٣	شطحات الصوفية	الدكتور عبد الرحمن بدوى
١٤	إتحاف السادة المتقين	ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى
١٥	رابعة والحياة الروحية فى	للمناوى
١٦	الإسلام	الأستاذ طه عبد الباقى سرور
١٧	الجواب الشافى	لابن القيم الجوزية
١٨	احياء علوم الدين	للأمام أبى حامد الغزالى
١٩	التفكير الفلسفى فى الاسلام	للدكتور عبد الحليم محمود
٢٠	كشف المحجوب	للنويرى
٢١	الرسالة القشيرية	للقشيرى
٢٢	عوارف المعارف	للسهروردى

٢٣	مناقب العارفين	للأفلاكى
٢٤	قوت القلوب	لأبى طالب المكى
٢٥	الكواكب الدرية	للمناوى
٢٦	تذكرة الأولياء	لفريد الدين العطار
٢٧	وفيات الأعيان	لأبن خلكان
٢٨	البيان والتبيين	للجاحظ
	صفوة الصفوة	لابن الجوزى
	السنوسية دين ودولة	للدكتور محمود فؤاد شكرى

كتب صدرت للمؤلف

١- توضيح المفاهيم فى المنطق القديم .

٢- موقف الإسلام من الفلسفة فى عقيدة البعث ومصير الإنسان .

٣- الإسلام عقيدة ونظام .

٤- عقيدة التوحيد فى الرسالات السماوية من خلال النصوص القرآنية .

٥- سلسلة " الإسلام وقضايا العصر " (جزء أول) .

٦- سلسلة " الإسلام وقضايا العصر " (جزء ثانى) .

بعنوان : المسلمون فى البوسنة بين الماضى والحاضر.

٧- نظرات فى التصوف الإسلامى ومكان رابعة فيه .

تم بحمد الله

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا

وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب



العاشر للطباعة والنشر والتغليف
(كارتبرس)
العاشر من رمضان ص.ب: ١٩١ ت .وفاكس ٣٧١٥١٠ / ٠١٥

رقم الإيداع
٣٢٢٨ - ١٩٩٩